المسلمون بين
الخطاب الديني والخطاب الإلهي

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد بلال

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

٣٣ شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زيد - الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥ - ٠٠٢

E-mail: alnokhoba@gmail.com

المسلمون بين الخطاب الديني والخطاب الإلهي

تأليف: علي محمد الشرفاء الحمادي

عدد الصفحات: ٢٤٨

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٧/١١٢٣٠

ISBN: ٩٧٨ - ٩٧ - ٦٥٨٠ - ٧٨ - ٧

المسلمون بين
الخطاب الديني
والخطاب الإلهي

تأليف
علي محمد الشرفاء الحمادي

تقديم ومراجعة
محمد محمد إبراهيم مصطفى

النخبة - يونيو ٢٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ
وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾(الأعراف: ١ - ٣)

فهرس المحتويات

الفهرس	٥
المقدمة	١١
(١) رسالة الإسلام	١٩
(٢) خطاب الهدى	٣٣
(٣) الخطابان	٣٥
(٤) أركان الإسلام بين الاختزال والاستهداف	٤٥
(٥) محاور الإسلام وأركانه الحقيقية	٥١
المحور الأول: العبادات	٥٢
المحور الثاني: منظومة القيم والأخلاق	٥٣
أ - بر الوالدين	٥٣
ب - العلاقات الزوجية	٥٣
ج - حقوق اليتامى	٥٧
د - ضوابط الميراث	٥٧
هـ - الإنفاق في سبيل الله	٥٨
و - سلوك المسلم	٦١

المحور الثالث: المحرمات ٦٤

(٦) التفكير فريضة إلهية ٦٧

(٧) أهل الذكر ٧٧

(٨) القراءة والدعوة للعلم ٨٣

(٩) الروايات تحجب نور القرآن ٩١

(١٠) مراجع الخطاب الديني السني والفرق بينه وبين الخطاب الإلهي ٩٩

أولًا: مصادر الخطاب الديني السني ٩٩

ثانيًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٠

ثالثًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٢

رابعًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٣

خامسًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٥

سادسًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٦

سابعًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٧

ثامنًا: مصادر الخطاب الديني السني ١٠٩

تاسعًا: مصادر الخطاب الديني السني ١١١

عاشرًا: مصادر الخطاب الديني السني ١١٢

(١١) مراجع الخطاب الديني الشيعي ١١٥

(١٢) القواسم المشتركة بين الشيعة واليهود ١٢٣

(الجانب الأول): الوصي عند اليهود والشيعة ١٢٤
(الجانب الثاني): الله يختار الوصي ١٢٤
(الجانب الثالث): حصر اليهود والشيعة لأسباطهم وأئمتهم ١٢٥
(الجانب الرابع): حصر اليهود الملك في آل داود وحصر الشيعة الإمامة في ولد الحسين ١٢٥
(الجانب الخامس): الأنبياء عند اليهود يعلمون الغيب كما الأئمة عند الشيعة يعلمونه ١٢٦
(الجانب السادس): خذلان اليهود لأنبيائهم كما خذلان الشيعة لأئمتهم ١٢٧
(الجانب السابع) انقطاع الملك والإمامة عند اليهود والشيعة ١٢٧
(١٣) القتال في سبيل الله ١٢٩
(١٤) الجهاد في سبيل الله ١٤١
الجهاد في زمن السلم ١٤٤
الجهاد في زمن الشدائد ١٤٦
(١٥) الخطاب الإلهي حوته آيات القرآن ١٤٩
القرآن وخطابه للإنسانية جمعاء ١٥٢
مكانة الإنسان في القرآن التكريم ١٥٣
الأخلاق هي قاعدة التقدم في القرآن ١٥٤
الخطاب القرآني بين التفعيل والتبليغ ١٥٦
نداء القرآن للإنسانية ١٥٦
أطوار الخطاب الإلهي في القرآن: ١٥٧

(١٦) القرآن الكريم يتحدث عن نفسه ١٥٩
(١٧) استهداف الخطاب الإلهي ١٧٣
اليهود وضرب الإسلام ١٨١
اليهود في يثرب ١٨٢
بداية العداء في المدينة ١٨٥
غزوة بني قينقاع ١٨٩
ضربة مؤلمة ليهود بني النضير ١٩١
بنو قريظة لم تتعلم الدرس ١٩٣
الضربة الحاسمة لليهود في خيبر ١٩٥
التحالف اليهودي الفارسي القديم ١٩٨
الفرس وغرس بذور التشيع ١٩٩
(١٨) الانقلاب على الكتاب ٢٠٥
هجر القرآن ٢١٠
الصراع على الخلافة وظهور الفرق ٢١٣
انشقاق المسلمين وأولى الحروب بينهم ٢١٧
أبرز الأحداث الدامية ٢٢١
التي حدثت وتواصلت حتى الآن ٢٢١
في كل ما سبق ٢٢٦

(١٩) تلفيق الروايات ٢٢٧
قصة تدوين الروايات ٢٣٢
خلاصة القول ٢٣٣
وقفة بالتدبر والتفكر ٢٣٤
كعب الأحبار ٢٣٥
وهب بن منبه ٢٣٦
معاوية وكعب وذو القرنين ٢٣٦
هل يجوز تصديق الكهنة والأحبار؟ ٢٣٧
أبو هريرة ٢٣٨
إنكار الصحابة على أبي هريرة ودفاعه عن نفسه ٢٤٠
الخلاصة ٢٤١

المقدمة

لقد بعث الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ ليحمل للناس كافةً كتابًا مباركًا، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليهديهم طريق الخير والصلاح؛ إذ يقول سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (ص: ٢٩).

إنه أمر من الله جل وعلا لرسوله بأن يبلغ الناس جميعًا أن يتدبروا آيات الله وما فيها من عبر وتعاليم وقيم، وتشريعات تنظم العلاقات الاجتماعية بين الناس على أساس التعاون والمحبة والعدل لبناء مجتمعات الأمن والسلام، وتعيش في وئام وتسعى للخير، تتحد لدفع الضرر، وتتبع الله فيما أمر؛ تنفيذًا لأمره تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (المائدة: ٢).

إنها رسالة الإسلام تلك التي بعث بها الله سبحانه وتعالى رسوله محمدًا ﷺ يحملها في كتاب كريم، ليهدي الناس كافةً سبل الخير والصلاح، وليخرجهم من الظلمات إلى النور؛ فيحررهم من استعباد البشر للبشر، واستعباد الأصنام لعقول الناس.

هكذا جاء الخطاب الإلهي ليحرر الفكر من الاستسلام للأمم السابقة، بإطلاق حرية العقيدة، وحرية التفكير، لتوظيفه في البحث والاستنتاج والإبداع، بغية استنباط العلوم في شتى مناحي الحياة من خلال التوجيهات الربانية في كتابه الكريم، وقد حذرنا الله في كتابه الكريم من أولئك الذين اتخذوا من السابقين حجةً يتقيد بها اللاحقون ممن أتوا بعدهم بقوله تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾ (الزخرف: ٢٢).

ولتحقيق تلك الغاية النبيلة وضع الله سبحانه في خطابه الإلهي - القرآن الكريم - القواعد التي تحدد خارطة الطريق للإنسان في حياته الدنيا، وتعينه في أداء واجبات العبادة دون تناقض بين متطلبات الحياة الدنيا، والتكليف الإلهي بعبادة الواحد الأحد وتأدية التكاليف الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج، وبما يتواكب مع قيم القرآن في الفضيلة والأخلاق لبناء شخصية المسلم بناءً سليمًا، على أساس من العدل والرحمة والحرية والسلام.

إن المولى عزوجل جعل الناس شعوبًا مختلفة وقبائل متعددة، لا ميزة لإحداها على الأخرى؛ حيث يتطلب هذا التعدد والاختلاف في الأعراق البشرية التعارف بينهم وتعلم لغة كل منهم، ليتعاونوا فيما يحقق لهم الخير والأمان والتقارب من خلال التبادل التجاري والتعاون الاقتصادي والصناعي والزيارات السياحية والاستطلاعية، للتعرف على ثقافات الشعوب وتبادل العلوم والمعرفة الإنسانية لجميع خلقه. وهو وحده سبحانه من يحكم على أعمالهم ويميز من يعمل صالحًا أو طالحًا.

فلا ميزة لأي إنسان على آخر إلا بما يقدمه من عمل صالح لنفسه ولمجتمعه، فلا حصانة لأحد عند الله إلا من آمن بالله والتزم بتكاليف العبادات والمعاملات، والعمل الصالح.

وما كانت رسالات السماء على طول الزمان إلا نداءً لبني البشر، بغية تصريف العقل في ناحية استكشاف المعارف والعلوم والأسرار الكامنة في جوف الطبيعة، ليتسنى للبشر استنباط قوانين الحياة التي أودعها الله حول الإنسان حيثما كان، ليقوم بنو الإنسان على عمارة الأرض على أساس من العدل والسلام والرحمة والتعارف، والتواد فيما بين الناس بعضهم البعض تأكيدًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ (الحجرات: ١٣).

لقد كانت قوى الشر متربصة ومستنفرة للهجوم على دين الإسلام، وحاولت بشتى الوسائل اغتيال رسالته، رسالة الحرية والعدل والمحبة والسلام. وهكذا استدعت

تلك القوى شياطينها ومفكريها ليبتدعوا أخبارًا ملفقةً وإشاعاتٍ زائفةً وأحداثًا مزورةً، واختلقوا الدعايات المضللة ونسبوا الكثير من ذلك إلى روايات عن الصحابة.

واجتهد العلماء الذين اعتمد كل منهم على مصادره الخاصة، فتكونت زعامات دينية متعددة اتخذت من الروايات مصادر لمساعدة الخلفاء في تمكين سلطتهم وحماية ملكهم، وأن في اتباعهم يكمن رضاء الله ودخول الجنة.

وقد كان لليهود دور كبير في إغراق التراث الإسلامي بآلاف الإسرائيليات التي تخدم أهدافهم، والتي تؤدي بالنتيجة إلى اتخاذ المسلمين سلوكيات تصرفهم عن اعتماد القرآن مرجعيةً للدين الإسلامي وتزرع الفتن بينهم للتفرقة ونشر الصراعات الدامية التي تشوه صورة الإسلام.

فليصوب المسلمون مسارهم اليوم وفق قواعد هذا الكتاب المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لنكون ويحقق الأمة الوسط التي تقود البشرية بالقيم النبيلة التي أرسى قواعدها الخطاب الإلهي حمايةً لحقوق الإنسان وتأكيدًا لحريته، قواعد إنسانية قائمة على الرحمة والعدل لتحقيق الأمن والاستقرار لشعوب العالم.

قواعد في هذا الخطاب الإلهي تبني السلام بين الأمم وتضع حدًّا للصراعات الدامية وتحمي الإنسان من القتل العشوائي والتشرد والضياع، قواعد نبيلة تحرر الإنسان من الاستسلام لليأس وتدفعه للعمل والتعمير، وتغرس في نفسه الرحمة والتسامح والتعاون واحترام الآخر، ومن ثم يتعامل بالإحسان ويحترم غيره من أي ملة وفي أي مكان.

وليكن موقفًا شجاعًا فيه قربى إلى الله، كما فيه الخلاص والنجاة، فكما أمر الله المسلمين بالتدبر في كتابه الكريم، فإن الجميع اليوم مدعوون لدراسة الأسباب التي أدت للخلاف والاختلاف والفرقة بين المسلمين، منذ عهد وفاة الرسول ﷺ وحتى يومنا هذا.

ولنسأل أنفسنا هذا السؤال الملح، حتى نعثر على إجابته: لماذا ابتعد المسلمون قرونًا طويلةً عن تطبيق وإنفاذ شريعة الله تعالى، وما حوته من قيم وأخلاق رفيعة داعية للخير والمحبة والعدل والسلام والرحمة؟

ولن يتسنى لنا الإجابة على هذا السؤال إلا بالتدبر في قرآنه، والتعرف على دلالات آياته ومراميها العليا، وما فيها من خير وصلاح للإنسان.

لا مناص إلا بالعودة خلف المرجعية الأم والأوحد والأعلى، مرجعية القرآن الكريم، كي لا تأخذنا مرجعيات دينية من بني البشر، وقد أضفوا عليهم من حلل القداسة ما صرف الناس عن الأصل: القرآن الكريم.

وقد أراد الله لنا أن نعتصم بكتابه العزيز، والذي من أجله أُرْسِل للناس الرسول الخاتم الذي بلغ عن ربه كما أمره ... منهج واحد أراد الله لنا التوحد خلفه كي لا تحدث الفرقة والتشرذم، لكنه حدث ... حدث وقد ضربت الفرقة في صفوفنا، فإذا ما اتحدنا خلف المرجعية الأصل - القرآن الكريم - أمكننا بذلك إزالة الفرقة ووقف التدهور الحاصل جراء التشرذم.

ولأمكننا تفويت الفرصة على المتربصين بنا والأعداء، أولئك الذين يتمنون بقاء الفرقة ليستمرويدوم هذا الوضع الحالي في هيئته المزرية تلك كما نراها من مذاهب شتى وفرق متعددة، الأمر الذي يصب في صالح العدو استثمارًا حين يرتع في ثرواتنا، ويعبث بأمننا، ويستبيح أوطاننا.

نعم؛ لن يكون لنا مخرج إلا بالعودة والتوحد خلف المرجعية الأم القرآن الكريم، وترك كل ما سواه من مرجعيات أسلمتنا رغما عنا للفرقة والضياع، فكان ما كان من الحروب والقتل والتدمير والفتن المتلاحقة ... لا خلاص سوى بالرجوع لكتاب الله تعالى وقرآنه الكريم، الذي يضيء لنا الطريق ليخرجنا من الظلمات إلى النور.

لقد تحتم علينا العودة للمرجعية الأم - القرآن الكريم - من أجل تصحيح المفاهيم المغلوطة، والتشوهات التي تناقلتها مؤلفات الفقه والتفاسير المختلفة، تلك التي اعتمدت على روايات بعض الصحابة، وتناقلتها الألسن بعد مرور أكثر من قرنين من الزمان على وفاة الرسول ﷺ في توضيح دلالات الآيات في القرآن الكريم وما أحدثته من ارتباك في قناعات المسلمين، وما ترتب على ذلك من تشويه صورة الدين الإسلامي لدى الشعوب الأخرى حينما استقلت كل فرقة بمفهومها الخاص، واتخذت كل فرقة من علمائها مرجعًا وحيدًا في كل ما يختص بفقه العبادات والمعاملات، وتعصبت كل فرقة لمذهبها.

كل هذا أدى بدوره إلى خلق كيانات اجتماعية منفصلة ومستقلة في المجتمع الواحد، حتى وصل الأمر إلى نشوء الفرق العديدة التي تكفر بعضها بعضًا، وقد تسببت في ذلك فتاوى وتفاسير بشرية اتبعت روايات ضالة، قد تعددت مصادرها، واختلفت أهدافها لتفريق المسلمين والابتعاد بهم عن منهج القرآن الكريم.

لذا فإنني أقترح في الوقت الذي فيه المسلمون يبحثون في تجديد الخطاب الديني أن نفكر جميعًا في أن نستدعي لحظات تاريخية منذ أربعة عشر قرنًا نتصور فيها أنفسنا في حضرة رسول الله ﷺ ، حيث يتلو علينا القرآن الكريم كما أمره الله كما في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (آل عمران: ١٦٤)؛ فنتلقى منه ﷺ ما ينزله الله عليه من آيات كريمة نتعلم منها الحكمة.

ويوضح لنا ما جاء في كتاب الله من حكم، وموعظة، وقيم، وعبادات، وتشريعات قد كلفه الله مسؤولية إبلاغ الناس بها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧)، وقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ (النحل: ٨٢).

ذلك أنه بعد وفاة الرسول ﷺ تفرق المسلمون فرقًا عديدةً، واسْتُحْدِثَت عشرات الآلاف من الروايات على لسان النبي ﷺ ، وظهر الخطاب الديني معتمدًا على مرجعيات بشرية ومفاهيم قصرت عن إدراك مراد الله من آياته لصالح خلقه، وتم عزل القرآن - الخطاب الإلهي للناس كافةً - الذي كلفه الله سبحانه لرسوله أن يبلغه للخلق، وغابت عنهم حقيقة الخطاب الإلهي لخلقه، والمسلمون اليوم أمام طريقين لا ثالث لهما:

- إما أن نتبع ما بلغنا به رسول الله من آيات كريمة في كتاب كريم. وأن نؤمن بالله الواحد الأحد ربًّا وبكتابه هاديًا ومرشدًا، وبرسوله نبيًّا وإمامًا وداعيًا إلى الله وسراجًا منيرًا يدعونا للوحدة ويحذرنا من الفرقة والتفرق حين الاعتصام بكتاب الله الكريم، وأن يكون القرآن وحده مصدر التشريع للمسلمين.
- وإما أن نتبع الروايات والذين روجوا لها على لسان الصحابة، ممن يسمون علماء الدين وعلماء الحديث وشيوخ الإسلام، وأقحموها في قناعات المسلمين ففرقت المسلمين شيعًا وأحزابًا؛ يضربون أعناق بعضهم البعض، معرضين أنفسهم لغضب الله وعقابه في الدنيا ويوم الحساب، وما زال المسلمون يعانون من نتائجها حتى اليوم.

هذه الدراسة محاولة مخلصة للبحث في أسباب تفرق المسلمين في حين أنه يجمعهم كتاب واحد (قرآن كريم) وإمام واحد (محمد عليه الصلاة والسلام).

ولعل تلك المحاولة تساهم في تسليط الضوء لمعرفة كيف بدأ التفرق، ولماذا حدث الاختلاف، ولمصلحة من يتقاتل المسلمون فيما بينهم، ومن المستفيد من سيل الدماء الغزيرة للأبرياء ... إنه أمر قد بدأ في عهد صحابة رسول الله واستمر حتى يومنا هذا.

وهذا ما يهدف له المؤلف في الوقوف من أجل معرفة الداء الذي ألم بالمسلمين، لعلها تكون الدعوة للمسلمين بعلمائهم ومفكريهم ومثقفيهم للبحث عن الدواء والمخرج لوقف نزيف الدم ونزيف المال وضياع الأوطان، وأن يتم ذلك بكل التجرد وفي مناخ من

الحرية تحت رعاية الدولة وضمانتها وحمايتها له، على أساس أن تكون الحجة بالحجة، لعل العرب يدركون سبيل الخروج من المحنة التي يعشيونها بأقل الأضرار.

وعسى أن تكون هذه الدراسة دافعًا مخلصًا في إعداد منهج تربوي يُدَرَّس في المدارس لإعداد جيل جديد لم يتلوث، بل يكون بحق جيلًا ينشأ على القيم والفضيلة والأخلاق القرآنية، ليحقق الأمن والسلام في وطنه، ويعمرويبني من أجل خلق مجتمع يعيش الجميع فيه بالرحمة والعدل والمساواة والسلام، حتى لا يبقى مسكينًا يبحث عن لقمة عيش، ولا فقيرًا لا يجد سكنًا، ولا مريضًا يبحث عن الدواء، فكل المجتمع متضامن يكفل بعضه بعضًا بالمحبة والرحمة والتعاون؛ ترفرف عليه البركة والسكينة، ترعاه عناية الله وتحفظ لهم الأمن والسلام.

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

علي محمد الشرفاء الحمادي

(١) رسالة الإسلام

لقد اقتضت إرادة الخالق سبحانه وتعالى رحمةً بعباده أن يبعث لهم خطابًا كريمًا ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعينهم على تحقيق حياة مستقرة آمنة؛ يتحقق فيها العيش الكريم بالتراحم والتعاون والتسامح، وإفشاء السلام بين الناس وإرساء قواعد العدل والإنصاف.

وحمل هذا الخطاب محمد ﷺ ليبلغه للناس كافةً، بقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (ص: ٢٩)، والذي اقتضى مراد الله أن يجعله هدايةً للناس، وتشريعًا صالحًا لكل زمان ومكان، يتوافق ومتطلبات المجتمعات الإنسانية على مر العصور بما يحمله من قيم إنسانية عظيمة، ومن تشريعات تتوافق مع متطلبات المجتمعات البشرية على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم.

وقد أمر الله المسلمين بضرورة الاعتصام بالقرآن الكريم تحصينًا لهم من أسباب الفرقة، وحمايةً لهم من الفتن ملتفين حول الخطاب الإلهي، ينهلون من آياته، ما يعينهم على تسيير أمور مجتمعاتهم، على أساس من الرحمة والعدل والمحبة والسلام، ويحذرهم المولى عز وجل من التفرق بقوله سبحانه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وبدلًا من أن يكون القرآن هو المعين الذي لا ينضب نوره كي يستضيء به العلماء ليبصروا الطريق، ويقيهم شر شهوات النفس حال استعانتهم به واتباعه في معرفة مراد الله في خلقه، ويطبقون خارطةً للطريق مضيئةً جليةً، فتحفظ للإنسان حريته وحرمته وكرامته وأمنه ورزقه ...

بدلًا من ذلك إذا بهم يهجرونه ويستبدلونه بروايات بشرية لا أصل ولا سند لها من الدين والعقل، روايات استحدثتها شياطين الإنس لخدمة المآرب الدنيوية، والتقرب بها للسلطان غطاءً لحكمه وإعلاءً لشأنه، وقد قام أعداء الإسلام بتسويق الروايات والإشاعات والترويج لها لتشوش على المسلمين بيان القرآن الكريم.

وإذ يؤكد الله في كتابه الكريم، بأن على الناس ألا يتبعوا غير آيات الله، ولا يتبعوا روايات مهما كان مصدرها أو مكانة راويها بقوله سبحانه: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الجاثية: ٦).

فالله يقول لنبيه أنه أنزل عليه آياته واضحةً جليةً، فبأي روايات تناقلتها الألسن على مر القرون يتبعونها، وحكايات سُمِّيَت أحاديث تقولوا بها على رسول الله ﷺ تخالف آيات الله حينما تم إضفاء القدسية عليها، بالرغم مما فيها من تناقضات مع كتاب الله، فهي لا تتفق مع المنطق والعقل، والله سبحانه يخاطب العقول المبصرة، ليتدبروا آياته، ويهتدوا إلى طريق النور الذي أنزله الله على رسوله.

فعلينا الحذر من الذين جعلوا الخرافات في ديننا والروايات لغزًا معقدًا في إسلامنا، وهم بذلك قد باعدوا بين الناس وبين رسالة الله في قرآنه، الأمر الذي ساعد قديمًا كفار قريش، وأعداء الإسلام من أهل الكتاب على استرجاع طقوس الشرك وممارسة الظلم فيما قبل نزول الوحي.

وهل من الصدفة أن تكون مصادر الروايات بالحديث مصدرها الرئيسي أفراد من العجم تم تقديسهم وإعلاء مكانتهم، بالتسويق لهم بكل الوسائل المتاحة لاعتلاء الإسلام في العصور الماضية إلى عصرنا الحاضر أمثال:

١) البخاري من بخارى - أوزبكستان.

٢) الترمذي من ترمذ – أوزبكستان.

٣) أبو داود من سيستان - أفغانستان.

٤) مسلم من نيسابور – إيران.

٥) ابن ماجه من قزوين – إيران.

ولننظر كيف استطاع المجوس أن يشككوا في دين الإسلام، وكيف استسلم العرب المسلمون الذين ابتعث الرسول من بين ظهرانيهم وهم أهل اللغة العربية ... كيف استسلموا لروايات أتت من الأعاجم وجعلت آيات الله تتفلت من بين أيديهم، ويهجروا كتابه القرآن الكريم الذي جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليجعلهم في قيادة الحضارة الإنسانية لرفع قيمة الإنسان ونشر العدل والسلام للعالم أجمع.

نعم؛ قد استسلم العرب وأذعنوا لروايات المجوس وبني إسرائيل فتاهوا في صراع مرير، يضربون أعناق بعضهم بعضًا ويحققون لأعداء الإسلام مآربهم في تشتتهم وتراجع دين الرحمة والسلام والعدل، فصاروا أتباعًا لأعدائهم، وهم بذلك قد تراجعوا عن حمل رسالة الإسلام التي تدعو الناس للتراحم والتعاون لخير الإنسانية جميعًا.

وتأتي إجابة الرسول ﷺ في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ (الفرقان: ٣٠)، لتؤكد هذه الآية بأن الرسول ﷺ سوف يشتكي المسلمين إلى الله، بأنهم هجروا القرآن، منبهًا ومحذرًا من خطورة الابتعاد

عن الخطاب الإلهي وبما نص عليه القرآن الحكيم باعتباره دستورًا من الله لعباده، ليضيء لهم طريق الحياة ويعينهم على تحقيق السعادة في الدنيا، ويؤمن لهم حياةً طيبةً في الآخرة ويسكنهم جنات النعيم.

إن الرسول ﷺ إذ يشتكي إلى الله، بأن أمة الإسلام هجرت القرآن، فهذه الشكوى تحذير للمسلمين بالامتناع عن تصديق أو اتباع أية روايات تواترت على مر السنين، تُنْسَب جورًا إلى رسول الله، بغية تحقيق مصالح دنيوية تدعم السلطان وتهدم مرجعية القرآن حين تؤسس تلك الروايات لأسباب الفرقة بين المسلمين، وتجعلهم شيعًا وأحزابًا وتؤجج الصراع بينهم وتعمق التعصب، مما يترتب على ذلك نشوب الحروب وسفك الدماء.

وقد ساهم كل هذا في انتشار البغضاء والعدوان بين أبناء الوطن الواحد، الأمر الذي صب في صالح أعداء الله وأعداء المسلمين، والله لا يريد لنا هذا الهوان والضعف، من هنا أمرنا سبحانه وتعالى التمسك بكتابه الكريم وما جاء به من تشريعات.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى تشريعًا لخلقه، مبنيًّا على حرية الاعتقاد بأعظم صفاتها، حيث يقول سبحانه: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف: ٢٩).

كما يخاطب نبيه بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس: ٩٩).

ويؤكد له ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (الغاشية: ٢٢).

ويوضح صلاحيات الرسول ﷺ : ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**﴾ (الأنعام: ١٠٧).

إذًا؛ من أعطى لأي مخلوق الحق في أن ينصب من نفسه قاضيًا، فيكفر من يكره، ويزكي بالتقوى من يحب؟ وعجبًا كيف غابت تلك الآيات الكريمة عن الذين نصبوا أنفسهم قضاةً على العباد، فيقضون بما لا يحق لهم، ويحكمون ظلمًا على الناس، ويمارسون القتل لمن يكفرونه؟

كيف عميت أبصار هؤلاء عن كلام الله الذي لا يقبل التأويل أو التضليل؟! كيف وأحكامه واضحة جلية؛ حدد فيها المولى عزوجل مسؤولية الأنبياء، ومسؤولية خلقه من خلال استقبال الرسالة وتبليغ الأنبياء لهم بأن يختار الناس الدين الذي يريدون بمنتهى الحرية، وأن حسابهم عند الله جميعًا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (الحج: ١٧).

ولم يمنح الخالق سبحانه أي نبي أو رسول أن يشاركه في التشريع لخلقه، فاحتفظ بحق التشريع له وحده، وترك لنبيه ورسوله التبليغ والشرح والتوضيح لمراد الله لكل آية من كتابه الكريم.

لقد أمر الله الناس في محكم كتابه بالتدبر واحترام العقل، وتنمية الفكر والارتقاء به، وتنقيته من الخرافات والأوهام وإعمال المنطق، والإيمان بمرجعية القرآن وما فيها من دلالات تؤكد للناس أن يحرروا عقولهم، ولا يرتهنوا لمقولات تواترت عبر القرون، ولا يقدسوا الأشخاص مهما بلغ علمهم فإنهم بشر يخطئون ويصيبون وما صاغته أفهامهم عبر القرون الماضية حسب قدراتهم الفكرية، وحسبما أملت عليهم ظروفهم الاجتماعية ومصالحهم الشخصية وانتماءاتهم.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى قاعدةً عظيمةً تأمرنا جميعًا بأن نستنبط حلولًا من القرآن الكريم تتوافق مع كل عصر، تأسيسًا لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٤).

ترشدنا الآية المذكورة أعلاه بأن كل أمة في كل عصر لها ظروفها ومتطلباتها وتشريعاتها، وسيحاسبهم الله على ما عملوا من عمل صالح، وسيعاقبهم على ما ارتكبوا من جرم وآثام. ولن تكون الأمة التي تعقبها مسؤولةً عمن سبق من الأمم.

لذا فهو إرشاد للناس بأن يبحثوا في كتاب الله عن تشريعات تنظم المجتمعات بها أحوالها واحتياجاتها، وتتحلى بالقيم الأخلاقية التي أمر الله بها في كتابه الكريم.

وبذلك يجب أن تجتهد كل أمة في كل عصر باستنباط التشريعات اللازمة بما يحقق مصالحها الحياتية. فلن نُسْأَل عمن سبقنا وكل سيُحَاسب بما كسبت يداه. ولن يشفع لنا من عاش قبلنا، ولن تقينا أفهام وتفاسير من سبقونا. إنما يشفع لنا ما قدمناه لأنفسنا وللناس في عصرنا الذي نعيشه.

أما قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران: ١٩١) فهي دعوة للتفكير.

ويضرب الله لنا مثلًا عن الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، بأنه علينا أن نتبعهم في البحث والتدبر، لتتحقق لنا بذلك نتائج هامة ومفيدة، تدفع في اتجاه تأصيل اعتقادنا وتقوية إيماننا، والارتقاء بمجتمعاتنا كي نضيف للإنسانية عناصر التطور والتنمية لرفعة شأن الإنسان في كل مكان.

فمرجعيتنا هو القرآن باعتبار أنه رحمة ومحبة وعدل وسلام بين بني الإنسان.

إن على المسلمين اليوم لو أرادوا للإسلام عزةً ومكانةً أن يرتقوا إلى قيم القرآن ويتبعوا هديه، ويستعينوا بالخطاب الإلهي، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويستعينوا بما أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ ، حيث يقول لنبيه: ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ (إبراهيم: ١).

قد كلف الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ ، واختاره من بين كل عباده ليكون الرسول المصطفى للناس؛ يهديهم إلى الخير في الدنيا وإلى السلامة في الآخرة، وليعيش الناس فيما بينهم على أساس من التعارف والتعاون والألفة، تطبيقًا للآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٣).

ولأجل هداية الناس أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على رسوله محمد ﷺ ليعلمهم ويرشدهم، كي تسود العلاقات التي تتسم بالرحمة والتعاطف بين الناس والاحترام والتفاهم، والتسامح وعدم الاعتداء.

ولذلك احتوى القرآن مجموعةً من التشريعات التي تنظم الحدود والأحكام، لضبط سلوكيات المجتمعات فيما يتعلق بسلوكيات الناس وتعاملاتهم تستند لها القوانين والتشريعات البشرية في تنظيم العلاقة بين الدولة والمجتمع، وقد اختص الله سبحانه وحده بالحكم فيما يتعلق بالعبادات التي فرضها على عباده، تلك التي جاءت في القرآن الكريم.

لقد حدد سبحانه وتعالى خارطة الطريق التي اتبعها الرسول محمد ﷺ لإيصال الرسالة للناس، وتنفيذًا لشروط وضوابط التكليف الإلهي ليبين لهم مراد الله من دعوتهم لدين الحق والسلام وطريق التوحيد والإيمان كما يلي:

أولاً: قال تعالى: ﴿**الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (البقرة: ١ - ٥).

وفي تلك الآيات يضع الله المسلم على طريق الإيمان لتكون لديه مسؤولية التكليف وتطبيق أوامر الله قولًا وعملًا.

ثانيًا: ويستمر القرآن في تحديد التكليف الإلهي للرسول، فيرسم له أيسر الطريق في حمل الرسالة، وتوضيح العلاقة بين رسالة الإسلام والرسالات الأخرى بأن الله سبحانه قد جعل لكل أمة شرعةً ومنهاجًا، ولم يجعلهم أمةً واحدةً لحكمة عنده.

كما يوضح سبحانه وتعالى كيفية التعامل مع الشرائع المختلفة، وأنه يلتزم في أي أحكام تتصل بهم بما أنزله الله في كتابه؛ كما جاء في قوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (المائدة: ٤٨).

ثالثًا: واستكمالًا لتحديد معالم التكليف الإلهي، حيث يحدد الله سبحانه وتعالى مسؤولية رسوله بالقيام بإبلاغ الناس كافةً بما جاء في قرآنه الكريم - الخطاب الإلهي - لعباده، فيضمن لهم طريق الجنة، ويقيهم من عذاب الآخرة فيسعدون في الدنيا، ويجزيهم الله الجزاء الأوفى يوم القيامة، حيث يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧).

ويأمر الله سبحانه وتعالى بالتمسك بالقرآن الكريم، وليس بغيره حيث تستقيم حياة الناس بالاعتصام بما أنزله الله على رسوله في كتابه الكريم، تنفيذًا لقوله سبحانه: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (الزخرف: ٤٣).

ويؤكد ذلك السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ (الزخرف: ٤٤). لأن هذا القرآن هو ذكر للناس وسوف يُسْأَلون عنه يوم الحساب، إذ قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء: ٨٨ - ٨٩).

رابعًا: لقد حدد المولى سبحانه وتعالى عناصر التكليف الإلهي للرسول ﷺ وبين له مهمته في إيصال الرسالة للناس، وأسلوب الدعوة لاعتناق الإسلام، والمنهج الذي يجب على الرسول اتباعه في دعوته للناس كما جاء في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥).

خامسًا: لقد حدد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حدود مسئولية الرسول والقيود التي عليه ألا يتجاوزها في سبيل الدعوة، تلك التي أوضحها القرآن الكريم بصلاحيات محددة كما جاء في آيات الذكر الحكيم وهي كالآتي بيانه:

- ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ**﴾ (الغاشية: ٢١).

- ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الذاريات: ٥٥).

- ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ (ق: ٤٥).

- ﴿**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**﴾ (الأعلى: ٩).

- ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ (الأحزاب: ٤٥).

- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سبأ: ٢٨).

- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ (الفرقان: ٥٦).

- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

- ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ (الفتح: ٨).

- ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ (التغابن: ١٢).

- ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠).

- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: ٤١).

- ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٣).

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس: ١٠٨).

- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (الشورى: ٤٨).

إن اعتناق الدين الإسلامي يستوجب الاعتقاد بوحدانية الله، خالق السماوات والأرض، والاعتراف برسوله، ويكون ذلك باقتناع الإنسان ويقينه بأن يشهد بأن محمدًا رسول الله، والاستعداد لتحمل تكاليف العبادات، والالتزام بتجنب المحرمات، والعمل بجهاد النفس للارتقاء بالقيم الإسلامية، والتمسك بسلوكيات المسلم الحق، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦).

وإزاء تلكم (المسؤولية) و(بعلم الله الأزلي) بأن المسلمين سوف يبتعدون عن القرآن،[1] وسوف يتبعون روايات استحدثها الناس ووضعوها ونسبوها على لسان رسوله: روايات متعددة المصادر ومختلفة المقاصد، كانت وراء تفرق المسلمين، كما كانت سببًا في تكوين بؤر للصراع والقتال، فسقط عشرات الآلاف من المسلمين.

(١) مسؤوليتنا ثابتة في إعلاء تعاليم القرآن، ونصرة الإسلام، وعلم الله الأزلي بهذا التقصير لا يعني خلونا من المسؤولية هذه، فالعالم الأزلي أو العلم المسبق بما كان وما هو كائن لا ينفي قدرتنا على الاختيار واتخاذ القرار.

وكل فئة تقتل الأخرى بشعار الله أكبر، وكل فرقة تدعي أنها صاحبة الدعوة الصادقة لدين الإسلام، وهي وحدها تملك الحقيقة دون غيرها، وهي من تقف على فهم الإسلام الصحيح وحدها.

وعلى مدى أكثر من أربعة عشر قرنًا استمر القتال بين المسلمين حتى يومنا هذا ... ترملت نساء، وتشرد أطفال، وقُتِل مئات الآلاف من الشباب، ودِيسَ الكهول بحوافر الخيول، وطحنت أجساد بالدبابات، وتحولت مدن وقرى إلى مآتم كبيرة وبدأ عويل الثكالى يتردد صداه في السماء.

لقد جاء الإسلام بالرحمة والمحبة والسلام والعدل حيث يقول تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وعلى ضوء ما جاء أعلاه تبرز لنا الأسئلة التالية:

١) كيف استطاع المتآمرون على الإسلام وأعداء الله أن يزرعوا روايات تتعارض مع قيم القرآن وسماحته؟

٢) وكيف استطاعوا أن يغرقوا العقول في مستنقعات الفتنة والفرقة؟ في حين أن الله يدعو للتعاون والبر والرحمة والتسامح والمحبة.

٣) وكيف استطاعوا أن يمزقوا وحدة الرسالة إلى مرجعيات متناحرة متقاتلة، كل منهم يبحث عن سلطة ومغنم وجاه ومكانة مرموقة في المجتمع؟ وبعضهم يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا؟

٤) وكيف استطاعوا أن يجعلوا منا معاول لهدم دين السلام والمحبة، والتحول إلى وحوش كاسرة، فقدت كل قيم الإنسانية، فأهملنا ما جاءت به رسالة الإسلام من عدل وسلام ورحمة بقتل بعضنا بعضا تحت شعار الله أكبر؟

ويأتي الجواب ... والسبب؛ لأن المسلمين هجروا القرآن الكريم، ولم يجعلوه مرجعيتهم الوحيدة. ولم يتمسكوا بقيمه العظيمة وأخلاقياته السامية والالتزام به قولًا وعملًا وسلوكًا. ولذلك يحذرنا الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله جل وعلا: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ (الفرقان: ٣٠).

وعليه:

١) فإن هذه الآية أعلاه تستدعي من علماء المسلمين وفقهائهم ومفكريهم ومثقفيهم التفكر في التهمة العظيمة التي يوجهها الرسول لأمته الإسلامية، والتي تشير إلى أنه يشتكي إلى الله سبحانه من أمته بأنها قد هجرت القرآن، فتاهت العقول وتفرقت بها السبل.

كيف يستطيع المسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم تلك التهمة يوم الحساب، ومن سيحميهم من غضب الله؟

فعلى علماء المسلمين، أن تتوفر لديهم الشجاعة ولا تأخذهم في الله لومة لائم، بأن يبحثوا في أسباب هذه التهمة، وكيفية تصحيح موقف المسلمين ليفوزوا برضا الله ورحمته.

٢) إذا أراد علماء المسلمين أن تكون للأمة الاسلامية مكانة سامية تحمل رسالةً ومسؤوليةً عظيمةً للإنسانية كلها، وتقدم شعلةً سماويةً تضيء للبشرية طريق الأمن والسلام في الحياة الدنيا، وتحقق لها خير الجزاء يوم الحساب فعلى علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم أن يستعيدوا الإسلام ممن اختطفه، ويزيحوا عن كاهله ركام الروايات وأساطير الخرافات، وكل ما لا يمت بصلة للقرآن الكريم ليعود الإسلام الحق دين الرحمة بلا مذاهب ولا بدع، ولا فرق ولا طوائف ...

فيستمدوا من القرآن الكريم (الخطاب الإلهي) الذي فيه حاجة الناس كافة من تشريعات تنظم لهم متطلبات مجتمعاتهم على أساس من العدل والمساواة بين الناس

جميعًا. عندها يعود دين الإسلام كما بدأ في عهد النبوة لينشر المحبة والعدل والرحمة والسلام بين الناس، وعبادة الواحد الأحد، إعمالًا وتنفيذًا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣).

٣) ولكي يستطيع علماء المسلمين أن يحملوا هذه الأمانة، ويعيدوا للإسلام صورته الحقيقية المضيئة، والنور الذي أنزله الله على رسوله، فعليهم أن يتبعوا قوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ٣).

وأما إذا أخذتهم العزة والكبرياء وتمسكوا بالروايات والحكايات والأساطير هنا يكون هؤلاء ممن قد قال الله في شأنهم: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ (الأعراف: ١٤٦).

٤) لذا فعلى كل من تصدى للدعوة، والذين قدموا أنفسهم كعلماء للإسلام وحماته أن يتقوا الله وأن يستعيدوا منهج القرآن دون مذاهب أو طوائف، وبلا فرق وتنظيمات ومدارس فكرية من أي مصدر غير كتاب الله.

وبالتالي فإن المسلم غير ملزم باتباع أي عالم أو مجتهد، مهما بلغ شأنه وعظم أمره، ففي يوم القيامة سيسألنا الله: هل اتبعنا الرسول؟ وهل اتبعنا ما أنزل عليه من كتاب الله، الذي يدعونا للهداية والرشاد، ويخرجنا من الظلمات إلى النور؟

قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء: ٩).

٥) إن التمسك بالعروة الوثقى هو في التمسك بكتاب الله الذي يوحد الناس ويهديهم طريق الرشاد، ويعينهم على نشر المحبة والعدل والرحمة والسلام بين بني الإنسان.

ولذا يجب على كل مسلم أن يجعل القرآن مرجعه في الحياة الدنيا والآخرة، وأن يجعله خارطة الطريق في حياته ليكتسب أجر ما سعى إليه باتباع ما أنزله الله على رسوله من آيات بينات يستظل بها يوم القيامة، حيث يقول سبحانه: ﴿**فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا**﴾ (الإنسان: ١١).

(٢) خطاب الهدى

﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّ ةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١ - ٥).

وحدة الرسالة:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

التكليف الإلهي:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

التذكير بالقرآن:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥).

أسلوب الدعوة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

وحدة البشر:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

العدل الإلهي:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١).

حرية الاعتقاد:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

إن الحكم إلا لله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧).

لا وصاية في الدين:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾

(الأنعام: ١٠٧).

(٣) الخطابان

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣).

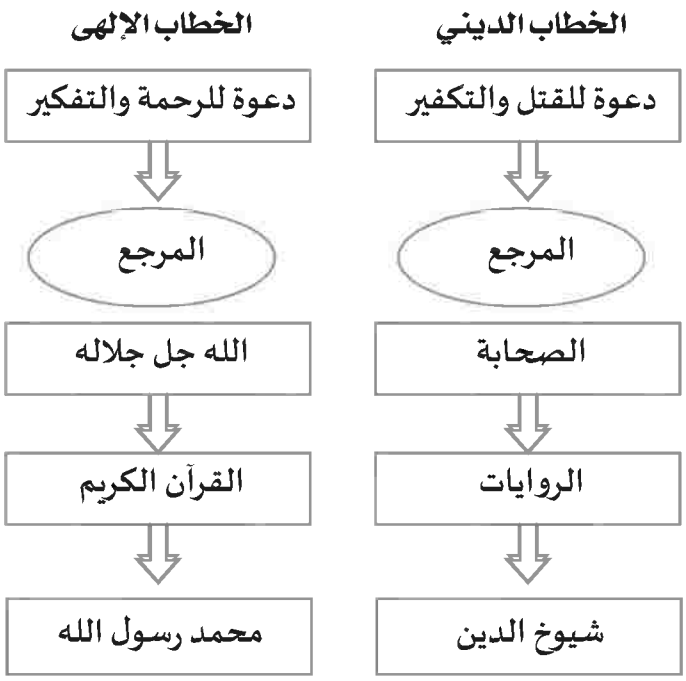

طريقان لا ثالث لهما: طريق الحق وطريق الضلال، فمن اتبع طريق الحق وهو الخطاب الإلهي للناس الذي بلغه الرسول الأمين للناس كافة. ومن اتبع طريق الغواية في السير خلف خطاب ديني بشري. والله يحكم بينهما يوم الحساب.[١]

(١) يوم القيامة سنسأل أي الطريقين اتخذنا: طريق الله الذي وضح مساره في القرآن الكريم، أم طرق البشر التي وضع مساراتها متكلمون باسم الدين مخالفين منهاج القرآن.

لقد ترك لنا الرسول ﷺ ما كلفه الله به بلاغًا تامًّا من دون نقصان قبل وفاته ﷺ بعد حجة الوداع بثلاثة أشهر في يوم كان فيه تمام اكتمال الرسالة وتمام أداء الأمانة، كما جاء في قوله ﷺ بما أنزل عليه من ربه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ (المائدة: ٣)، وفي هذه اللحظة انقطع الوحي بعدما أنجز أمر الله وبما أنزله على رسوله من كتاب مبين. وقد كلف الله رسوله بما يلي:

- يقول رسول الله عن ربه: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾(المائدة: ٤٨).
- وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧).
- وقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ٢ - ٣).
- وقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ (الأعراف: ٣٧).
- وقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ (يونس: ١٧).

- وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ٣٩).
- وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: ١٤).
- وقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٤).
- وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).
- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤١).
- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٦).
- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٨٩).
- وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف: ٥٧).
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس: ٦٩ - ٧٠).
- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧).
- وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٣ - ٤٤).
- وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥).

لقد جاء في الآيات السابقة ما يؤكد بأن الله سبحانه وتعالى كلف رسوله بأن يبلغ الناس آيات الله، ويحدد لهم خارطة الطريق المستقيم لحياة الإنسان، لينعم في الدنيا بما أحله الله له، ويبتعد عما حرمه الله عليه ليعيش سعيدًا في حياته الدنيا ويكون آمنًا يوم الحساب، وكان القرآن هو الكتاب الذي أمر الله رسوله بإبلاغه للناس، تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

وهذه الآية قد حسمت مسؤولية الرسول ﷺ بأن عليه بلاغ الرسالة الإلهية التي تضمنها القرآن الكريم في آيات محكمات ... من هنا تحددت وانحصرت مهمة الرسول في التذكير بالقرآن وشرح مراد الله منها لخلقه.

فإذا كانت مهمة الرسول حددها الله سبحانه بإبلاغ الناس بالرسالة، فمن أين أتى منشئوا الروايات وملفقوها بما جاءوا به من افتراء وزعم حين اختطفوا الرسالة بأكاذيب باطلة، فأصمت الآذان، وعميت الأبصار، وغيبت عقول كثير ممن تصدوا للدعوة والوعظ بما تلقوه وأخذوه من باطل وافتراء على رسالة الإسلام، وكان لذلك أثره في شيوع مفاهيم مغلوطة باطلة أدت في النهاية لانحدار وتخلف المجتمع الإسلامي.

حدث ذلك لما تمت تنحية القرآن الكريم كمصدر للتشريع ومرجع للاستنباط وهدى من الله يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكانت النتيجة أن تراجع المسلمون في شتى علوم الحياة، وتراجع التفكير في البحث والإبداع، وأصبح المسلمون بما وهبهم الله من ثروات وخبرات تعينهم على الاختراع والتميز والإنتاج والمساهمة في تقدم الحضارة الإنسانية في مختلف العلوم، تلك التي يعتبرها الدين الإسلامي إحدى ركائز العبادة وطاعة الله في التفكر والتدبر فيما خلق، ليوظفوا ما يتحقق لهم من نتائج تستفيد منها البشرية.

أصبح المسلمون يتلقون فوائض ما تجود به أسواق الغرب عليهم، ويدفعون لهم ثرواتهم ثمنًا رخيصًا، لقد عصوا الله في أمره لهم بالتدبر والتفكر، وخسروا ما وهبهم الله من رزق وثروة، حين جعلوا من الروايات حائلاً دون التدبر والتفكير.

نعم؛ قد رضوا بالروايات التي شلت التفكير وحل محله التكفير، ليتحقق التشرذم والتقاتل بين المسلمين، فينشغلوا بأنفسهم في الوقت الذي فيه غيرهم يعمل بجد واجتهاد في تطوير العلوم، وتنمية الأوطان لتحقيق الرفاهية لشعوبهم، ونحن رضينا بالدماء تروي الأرض بغيًا وظلمًا وتخلفًا عندما تركنا منهج رسالة العلم والإيمان، وحلت مكانها دعوة القتل والطغيان.

(٤) أركان الإسلام بين الاختزال والاستهداف

أول ما يتبادر للذهن ونحن بصدد هذا العنوان، والذي به نوجه تحذيرًا في غاية الأهمية، ألا وهو التحذير من هجر القرآن والانصراف عنه، واتباع الروايات الملفقة. أول ما يتبادر للذهن هو الوقوف على ما راج وشاع وتناقله المسلمون على أنها مسلمات لا بد من الإذعان لها من دون مراجعة أو تدبر أو تحقق. ألا وهو القول بأن أركان الإسلام الرئيسية قد انحصرت في خمسة أركان أسموها الأركان الخمسة.

فتربت أجيال ونشأت على تعليم أركان الإسلام بأنها (النطق بالشهادتين وتأدية الصلاة والزكاة والصوم والحج وهي أركان خمسة)؛ إذ اعتبروها إسلامًا في ذاتها، وليس في المبادئ التي تدعو إليها، ولم يحاول هؤلاء العلماء الذين روجوا وادعوا انحصار الإسلام فيما أسموه (بالأركان الخمسة) ولم يكلفوا أنفسهم مشقة تبيان الإسلام الحقيقي الذي جاء به القرآن.

كل ما فعله هؤلاء وقاموا به أنهم نقلوا إلينا مفاهيم وتأويلات فقهية؛ حولت الوسائل - والتي هي الشعائر - وجعلتها غايات، فالتبس الأمر وغاب عن الناس أصل الدين ومقاصده العليا، تلك التي يدعو إليها القرآن، والتي في حقيقتها الإسلام الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام والأنبياء من قبله.

فلا عجب إذًا ولا غرابة أن نجد المسلمين اليوم يفتقدون كثيرًا من الأخلاق والقيم والمبادئ الإنسانية، فظهر لنا من يصلون ويصومون ويحجون، لكن سلوكهم ليس من

الإسلام في شيء؛ ذلك أنه تعاقبت أجيال خلف أجيال وقد شبوا على الاعتقاد الخاطئ بأن الطقوس والممارسات التعبدية هي الغايات والأهداف، أما الأخلاق والمبادئ والقيم الإنسانية العليا فليست من الأركان أو من الأصول الإسلامية.

ولم يخرج ليومنا هذا من يطلقها جليةً واضحةً صريحةً ويعتمدها في مقرارات التعليم، من يعلن بصوت مسموع أن الشعائر الدينية وسيلة لأجل هدف وغاية سامية ترتقي بالفرد لمصاف الإنسانية العليا، تلك التي ينشدها هذا الدين القويم.

فالمبادئ والقيم والأخلاق من أجلها جُعِلَت الصلاة والزكاة والصيام والحج، وأن ما أطلقوا عليها أو حصروا تسميتها بالأركان، إنما هي وسائل موصلة لمقصد وغاية عليا هي في الأخلاق والقيم والمبادئ.

إن جملة الممارسات والشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج هي في الأساس وسائل تدفع بالإنسان إلى الوصول إلى الإسلام. الإسلام الذي هو جملة الأخلاق التي جاء بها القرآن، ودعا إليها النبي ﷺ والأنبياء من قبله، وهذه الوسائل تكمن قيمتها في التذكير والتربية والتزكية.

فغاية التذكير والتربية والتزكية عبادة الله، وتفعيل دور الأخلاق في الممارسات البشرية لصلاح المجتمع الإنساني، والاستخلاف في الأرض وعمارتها، ليصلوا بذلك إلى تحصيل السعادة حينما يتحقق للناس الرحمة والعدل والحرية والسلام.

وما يرددونه ويطلقونه في هذا المصطلح - أركان الإسلام - فليس بمستغرب أن لا نجده في كتاب الله قرآنه المجيد، لا وجود لهذا المصطلح غير الدقيق والذي يصادم مفهومًا قرآنيًّا واضحًا حين لا تكون الأخلاق والمبادئ والقيم الإنسانية العادلة موجودةً داخل أركان الإسلام.

وهو مصطلح لم يأت به نص من قرآن، وإنما هو من قبيل الوضع الاصطلاحي، وضعه الفقهاء استنادًا لرواية البخاري ومسلم، منقولاً عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، قال:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

هذا هو سند القائلين بحصر أركان الإسلام في الشعائر، وتلك هي حجة القوم رواية عن صحابي بلا دليل عن النبي ﷺ تتحول تلك الرواية لرسم ملامح الدين بكامله، بل تتحول بنا الرواية - لو اعتمدناها أصلاً - لنسف منهج قرآني واضح.

وبين في أن الأصل في الدين يقوم على العدل والأخلاق والمبادئ، تأتي هذه الرواية لتقول عكس ذلك، بل وتختزل أركان الإسلام في ممارسات تعبدية وشعائر؛ إن أقامها الفرد استقام إسلامه وحسن ولو كان سارقًا أو خائنًا أو كاذبًا أو حتى قاتلً ما دام أدى الأركان المذكورة.

ومن تلك كانت بداية الطامة الكبرى لأمتنا، إذ رأينا المساجد عامرةً عن بكرة أبيها، والملايين في موسم الحج والعمرة، والتباري في دفع الزكاة، والصيام على أشده. وإلى جانب ذلك وجنبًا إلى جنب رأينا الغش، والفساد، والسرقة، والاقتتال بين المسلمين، رأينا البيئة الحاضنة للتردي الأخلاقي والسلوكي هي بيئة ومحيط ملتزم كل الالتزام بالأركان المختزلة المدعاة بأنها وفقط هي أركان الإسلام.

نعم؛ رأينا كل ذلك ما دامت الانطلاقة والقاعدة التعريفية لأركان الإسلام قد اختزلت أركانه في الشعائر الدينية، وسنرى أكثر من ذلك ما دمنا مصرين على عدم مراجعة الأمر وتصويبه وفق الخطاب الإلهي في القرآن الكريم والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو تدبرنا في كتاب الله حق التدبر، لوقفنا على الأمر من دون لبس أو إبهام، فالإسلام يقوم بنيانه على الأخلاق، وما هذه الأركان إلا وسائل تصل بنا لتمام التوحيد والسمو الأخلاقي.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة مساعدة الفقراء والمساكين وتطهير النفس من الشح، والصوم تذكير بالتقوى واستشعار بحالة الجياع والمحرومين، والحج

استحضار لموقف البعث يوم القيامة والحساب في الآخرة، كما هو مناسبة للتعارف بين الشعوب وإحلال السلام بين الناس ...

فكل هذه الشعائر موجهة لإقامة الإسلام، وهي وسائل لتلك المقاصد الأخلاقية، ذلك أن الإسلام يتمحور في عنوان الأخلاق العالية التي دعا إليها القرآن، وهي نفسها الأخلاق التي دعا إليها الأنبياء والتزموا بها (عليهم السلام) حتى مبعث الأمين محمد ﷺ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ (الحديد: ٢٥).

إذ ليس في القرآن: (لقد أرسلنا رسلنا ليقيم الناس الصلاة والزكاة والصوم والحج)، فهذه ليست مقاصد، وإنما هي فرائض وشرائع ليست مطلوبةً لذاتها وإنما وسائل مطلوبة لغيرها، وهي تحقيق العبودية لله تعالى والاستخلاف وعمارة الأرض، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط في كل الأعمال الخيرة والفضائل والأخلاق التي من موجبها إصلاح الخلق حتى لا يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء، ولكي يخلف بعضهم بعضا ويعمروا الأرض حق عمارتها؛ ليكونوا قد أدوا الأمانة فينالوا بذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة.

من هنا كانت هذه العبادات في القرآن الكريم وسائل تؤدي بنا للوصول إلى غاية من الغايات أو هدف، فالصلاة في المفهوم القرآني وسيلة يُسْتَعان بها لما هو أعلى منها: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ (البقرة: ٤٥)، وكذلك الصيام هو وسيلة فقط إلى غاية تُسَمى التقوى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣).

فالغاية هي التقوى كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ٢١). والتقوى هي كف الأذى والعدوان

والبعد عن الظلم والبغي. قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (المائدة: ٢)، فالتقوى إذًا ضد العدوان.

والعدوان سببه الكذب؛ فلذلك عرف القرآن المتقين بالذين يأتون بالصدق ويصدقون بالصدق كما في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (الزمر: ٣٣) تلك هي التقوى، ولا يتقبل الله إلا من المتقين فتحروا الصدق تتقوا.

وهذه الأركان أو ما أطلقوا عليها الأركان إنما هي وغيرها من العبادات وسائل إلى (غايات قرآنية) كالتقوى والهداية والرشد والعقل والتذكر والذكر والتفكر وإلى غير ذلك من الغايات السامية الإنسانية.

وقد ابْتُلِيت الأمة بفقهاء لبسوا وشوشوا على الناس وصرفوهم عن خطاب الله للبشرية في قرآنه، وعمل هؤلاء بدعواهم حصر الأركان في العبادات، عملوا على إلهاء الناس وصرفهم عن الغايات والأهداف العليا للإسلام واستبدالها بالوسائل.

وليس في كل الأحوال تكون النوايا حسنةً والمقاصد طيبةً، بل إننا نستشعر أن حملات استهداف الأمة فكريًّا وعقديًّا كانت تقف خلف هذا المنحى للحيلولة دون قيام الأمة ونهوضها، فنقرأ أن النبي جعله الله ﴿**رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ثم لا نرى هذه الرحمة حتى على المسلمين، وأن نقرأ أن القرآن ﴿**ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾، ثم لا نراهم حوله!

ذلك أن حشد الروايات الملفقة، وفتاوى علماء السلطان على مر العصور كانا سببًا في هذا الالتباس الذي نراه في فهم أركان الإسلام، وإذا أردنا العودة لنعرف الإسلام قبل هذا التغيير فلا بد من العودة لمصدر الإسلام قبل حدوث هذا التبديل الكبير، ألا وهو القرآن الكريم لنقف على أركان الإسلام الكاملة لا المختزلة والتي على رأسها - بعد الشهادتين - الأخلاق والعدل والرحمة والتي نادت بها دعوات الأنبياء جميعًا ... قال تعالى:

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٠٥ - ١٠٦). فكما ذكرنا من قبل الأمر هنا يأتي بالتقوى.
- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٣ - ١٢٤) دعوة للتقوى.
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٤١ - ١٤٢) أمر بالتقوى.
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٦٠ - ١٦١) التقوى هي خلاص الإنسان.
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٧٦ - ١٧٧) في التقوى تكون النجاة.
- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الصافات: ١٢٣ - ١٢٤) التقوى هنا تمنعهم من أن يظلم الناس بعضهم بعضًا.
- ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (آل عمران: ٥٠) التقوى لبني الإنسان هي سبيلهم نحو التعاون فيما بينهم ليعمروا الأرض بالتعاون على البر والتقوى.
- ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٠ - ١١) التقوى نداء عام للبشرية، للناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)، وكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وكما نرى في الآيات الحاثة على التقوى، وكيف أن الأكرم عند الله هو الأتقى بين الناس. نعم؛ المقربون عند الله هم أهل التقوى، فهم أبعد الناس عن العدوان، وأبعدهم عن أذى الآخرين وعن أن يقعوا في الظلم، ذاك هو المقصد الرئيس الذي من أجله كان بعث الرسل، ليرشدوا العباد نحو الإيمان بالله واليوم الآخر، ويحثونهم على العبادة واتباع هدى الله بغية الوصول للتقوى.

التقوى التي بها تسود المجتمعات روح المحبة والتعاون، من هنا تأتي الرسل لتخبر الناس أن الله موجود، وهناك يوم للحساب كي يتحسب الناس أفعالهم ومن ثم يتجنبوا العدوان والأذى والظلم.

تأتي الرسالات لتؤكد على أن الله قد خلق الإنسان على هيئة من العلو والرفعة ارتقت به عن سائر مخلوقاته، فهو مخلوق لإعمار هذه الأرض بالعلم والمعرفة (خلق لكم ما في السموات وما في الأرض).

فهل يمكن أن يحسن بنو آدم إعمار الأرض واستثمار ما في السموات وما في الأرض وهم في نزاع وقتال وتظالم وحسد وكبرياء وصراع أبدي؟

كلا ...

ولذلك أتى الأمر بالتعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الإثم والعدوان، وإن أكرم الناس عند الله المتقون، ولا يتقبل الله إلا منهم. قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (المائدة: ٢٧).

وهذا عكس ما هو مستقر في عقول أكثر المسلمين. لأنهم هجروا الكتاب وركضوا خلف البديل الذي لم يأت به الله.

إنها الروايات التي غيبت على المسلمين وضوح بيان الحق في القرآن الكريم، وقد أخذتنا تلك الروايات المدسوسة وهي ركام من فتاوى فقهاء السلاطين والحكام، وفقهاء التقليد الأعمى للماضي السحيق.

كل هذا أخذنا بعيدًا عن نور الهدى حتى فارقت التقوى في كثير من الأحيان من يتمسكون بالطقوس والشعائر، وصرنا نرى التحاسد والتباغض والكراهية حتى داخل دور العبادة.

لذا يمكننا القول في جزم قاطع، أن غير المسلم الذي يحقق من خصال التقوى أكبر قدر من كف الأذى والعدوان هو أكرم عند الله من فقيه مسلم مستبد أو كاذب أو ظالم.

ولذلك سيتفاجأ المسلمون الظالمون بهذه الآيات في الآخرة فقط ويقولون: ﴿**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾ (السجدة: ١٢).

تأمل القول في الآية (نعمل) ولم يقل (نعلم) فالمصيبة المهلكة ليس في العلم وإنما العمل، أي ليس في الجهل البسيط، وإنما العدوان والظلم والكذب والغش وإضاعة الأمانة.

إن الإسلام في حقيقته هو جملة من الأخلاق والمبادئ الكونية السامية، وهي لا تتخلف ولا تتبدل من نبي إلى آخر ولا من أمة إلى أمة، فالصدق والأمانة والعدل والأمن والرحمة هي أخلاق مأمور بها عند كل الأنبياء وعند مختلف الأمم، وأضدادها منهي عنها عندهم جميعًا. فالإسلام في حقيقته هو الأخلاق والمبادئ الكونية الواردة في القرآن الكريم، وتتحدد في أوامر الله تعالى ونواهيه للناس ليصلوا إلى التقوى حتى يحققوا الإصلاح في الأرض وعمارتها.

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ**

بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١ - ١٥٣).

وقال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (النحل: ٩٠).

وأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج هي وسائل تذكر بهذه القيم والمبادئ التي ذكرها الله تعالى، وهي الأخلاق التي يجب على الإنسان أن يسلكها في حياته لصلاح دنياه؛ فينال بذلك سعادته في الدنيا وسعادته في الآخرة.

(٥) محاور الإسلام وأركانه الحقيقية

لقد حمل سيدنا رسول الله ﷺ رسالة الإسلام التي احتواها القرآن الكريم - الخطاب الإلهي - للناس، والتي تستهدف صياغة الشخصية الإنسانية باتباع الفضائل والأخلاق التي وردت في آيات الله لتصحيح سلوكيات البشر، والتي تساعدهم أن يعيشوا في مجتمعات تنعم بالخير والتعاون والسلام والرحمة.(١)

وقد وصف الله رسوله ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤)، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وبين الخلق العظيم والرحمة قيم وفضائل عديدة تصحح مسار الإنسان في حياته ليعيش مطمئنا في أمن وسلام.

ولقد استطاع المتنطعون بالدين والمغرضون أن يختزلوا رسالة الإسلام في محور واحد سُمِّي (أركان الإسلام) وحرموا المسلمين من بقية المحاور التي تتولى صياغة السلوك الإنساني وتحميه من الشرور ومن إيذاء غيره.

ولذلك السبب حدثت التداعيات السلبية في شخصية المسلم فأصبح (يسرق ويرتشي ويشهد الزور ويقتل النفس التي حرم الله ويعمل كل الآثام والموبقات وهو مقيم لشعائر الإسلام).

وتشير الآية الكريم في قوله تعالى ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ٨٥)، وذلك ما حدث جراء اختزال رسالة الإسلام وحصرها في الممارسات التعبدية والشعائر.

(١) القرآن الكريم بين الطرق السليمة لصناعة الإنسان الخير الفاضل الذي ينفع نفسه وغيره.

وفي هذا تحذير لنا من سوء المنقلب وسوء الخاتمة حين نؤمن ببعض ما جاء في الكتاب ولا نعير اهتمامًا بما جاء فيه من حث على الفضائل والقيم والأخلاق، بل ونكفر بقاعدة قرآنية تدعونا لقبول الآخر لا أن نعاديه ما دام الآخر مسالمًا لنا ولم يظاهر علينا بعدوان والله تعالى يقول في هذا: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة: ٨).

وقد تحتم علينا أن نصحح مفهوم أركان الإسلام، ما دمنا تصدينا معًا في محاولة مخلصة وأمينة لتصحيح مسار الرسالة الإسلامية لبناء مجتمع إنساني ترفرف عليه الرحمة والبركة ويقود السلوك القويم للعمل الصالح.

أركان الإسلام

تنقسم أركان الإسلام إلى ثلاث محاور هي كما يلي:

المحور الأول: العبادات

(١) شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

(٢) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر.

(٣) إقام الصلاة.

(٤) إيتاء الزكاة.

(٥) صوم رمضان.

(٦) حج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا.

(٧) التفكر والتدبر في القرآن الكريم وفي مخلوقاته.

المحور الثاني: منظومة القيم والأخلاق

أ - بر الوالدين

(١) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٥).

(٢) ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤).

(٣) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٨).

(٤) ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان: ١٥).

(٥) ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

ب - العلاقات الزوجية

(١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

(٢) ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: ٢٠).

(٣) ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

(٥) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١).

(٦) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

(٧) ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (النساء: ٤).

(٨) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦).

(٩) ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

(١٠) ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٢٤).

(١١) ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النساء: ٢٥).

(١٢) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣).

(١٣) ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ (البقرة: ٢٣١).

(١٤) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥).

(١٥) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٦ - ٧).

(١٦) ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

(١٧) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (البقرة: ٢٣١).

(١٨) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النساء: ٢٣ - ٢٥).

(١٩) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٢ - ٣٥).

ج - حقوق اليتامى

(١) ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢).

(٢) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

(٣) ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦).

د - ضوابط الميراث

(١) ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧).

(٢) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨).

(٣) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء: ١١ - ١٢).

(٤) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

(٥) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

هـ - الإنفاق في سبيل الله

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

(٢) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٢).

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

(٤) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

(٥) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠).

(٦) ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧).

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩).

(٨) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

(٩) ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الحج: ٣٥).

(١٠) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

(١١) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤).

(١٢) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

(١٣) ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٢١).

(١٤) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الأنفال: ٣).

(١٥) ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦).

(١٦) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

(١٧) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥).

(١٨) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١١).

(١٩) ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١٨).

(٢٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ

فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠).

(٢١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (البقرة: ٢٧٠).

(٢٢) ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١).

(٢٣) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

(٢٤) ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦).

و - سلوك المسلم

(١) الإحسان لذوي القربى.

(٢) الإحسان لليتامى والمساكين.

(٣) الإحسان للجار ذي القربى.

(٤) الإحسان للجار الجنب والصاحب بالجنب.

(٥) الإحسان لابن السبيل.

(٦) الإحسان لما ملكت أيمانكم.

(٧) أداء الأمانات إلى أهلها.

(٨) إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

(٩) اجتناب الظن السيء.

(١٠) اجتناب التجسس على الناس.

(١١) اجتناب الغيبة والنميمة.

(١٢) التواضع وخفض الصوت عند الحديث.

(١٣) العافين عن الناس والكاظمين الغيظ.

(١٤) التراحم بين الناس.

(١٥) خذ العفو ومر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين.

(١٦) وقولوا للناس حسنًا.

(١٧) الوفاء بالعهود والعقود.

(١٨) وإذا حُيِّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها.

(١٩) التعاون على البر والتقوى.

(٢٠) لا تكن فظًّا غليظ القلب.

(٢١) كن من الصادقين.

(٢٢) فاصفح الصفح الجميل.

(٢٣) ادفع بالتي هي أحسن.

(٢٤) أحسن كما أحسن الله إليك.

(٢٥) الإصلاح بين الناس.

(٢٦) لا تمشي في الأرض مرحًا.

(٢٧) إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب.

(٢٨) لا يسخر قوم من قوم.

(٢٩) لا تتنابزوا بالألقاب.

(٣٠) النهي عن القول بغير علم.

(٣١) لا تقربوا مال اليتيم.

(٣٢) لا تقهر اليتيم.

(٣٣) لا تنهر السائل.

(٣٤) ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦).

(٣٥) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

(٣٦) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

(٣٧) ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (الإسراء: ٥٣).

(٣٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨).

(٣٩) ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

المحور الثالث: المحرمات

(١) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٢٢).

(٢) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٣).

(٣) أن لا تشركوا بالله.

(٤) تحريم أكل لحم الخنزير.

(٥) تحريم أكل الموقوذة والمتردية.

(٦) تحريم أكل النطيحة وما أكل السبع.

(٧) تحريم الميتة والدم.

(٨) تحريم ما أهل لغير الله.

(٩) تحريم الأنصاب والأزلام.

(١٠) تحريم الخمر والميسر.

(١١) تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

(١٢) لا تقربوا مال اليتيم.

(١٣) لا تخسروا الميزان.

(١٤) تحريم البغي والظلم.

(١٥) تحريم الكذب والنفاق.

(١٦) تحريم شهادة الزور.

(١٧) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣).

(١٨) تحريم الجمع بين الأختين في الزواج.

(١٩) تحريم الفساد في الأعراض.

(٢٠) تحريم أكل أموال الناس بالباطل.

(٢١) تحريم الربا.

(٢٢) تحريم عقوق الوالدين.

(٢٣) تحريم الاعتداء على الناس.

(٢٤) تحريم الطعن بالشرف وتلويث السمعة.

(٢٥) تحريم السرقة والرشوة.

(٢٦) ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٦ - ٢٧).

(٢٧) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

(٢٨) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١).

(٢٩) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

(٣٠) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣).

(٦) التفكير فريضة إلهية

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣١ - ٣٣).

أول ما يتبادر إلى الذهن، هو إبراز ذلك التركيز الواضح في هذا المقطع القرآني الصغير على قيمة العلم والذي تكرر ذكره ست مرات (وعلم - لا علم لنا - ما علمتنا - أنت العليم - إني أعلم - وأعلم ما تبدون) بصيغ مختلفة توصل إلى استخلاص الحقيقة التالية:

إن الله العليم الحكيم علم آدم، والذي هو رمز هذا الجنس العظيم وأباه. علمه الأسماء كلها بلا استثناء، ومنحه شتى العلوم في طور البشرية الأولى المعرفة على التصرف في كل ما يستجد ويتطور من الأشياء حوله.

وبالوراثة أودع لديه في نسله المكرم من الله تعالى، فمثل هذا الاستعداد في معرفة الأشياء قد سرى فينا منذ الاصطفاء الأول لآدم أبي البشر، وفي ذلك تكريم لبني الإنسان قد اختصه الله به من دون سائر خلقه. العلم والتفكر والتدبر.

فقد علم الله آدم الأسماء، ومن يعرف الأسماء يعرف بالضرورة مسمياتها، مهما اختلفت مدلولاتها باختلاف اللغات، وإن في التعبير بالأسماء لأمارة على وجود مسمياتها، ولا ريب أنها كلها لم تكن موجودةً في طور البشرية الأولى، وإنما وُجِدت أو أُوجِدَت بالتدرج مع تعاقب الأطوار عبر رحلة الإنسان مع الزمان.

وهذا يؤكد أن في تعليم آدم الأسماء كلها، يعد هذا تصريحًا بوراثة بنية معرفة شاملة بكل الحقائق، وفاعلية مطلقة في كل الميادين، وقدرة لا حد لها على وضع الإبداع والتفكير موضع الاقتدار في كل حين.

وهي الآيات أيضًا فيها الدلالة على شرف العلم وفضيلته، لأنه تعالى لما أراد إعلام الملائكة فضيلة آدم علمه الأسماء بمعانيها، حتى أخبر الملائكة بها ولم تكن الملائكة قد علمت منها ما علمه آدم، فاعترفت لله بالفضل في ذلك.

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها. ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم: ﴿**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ ... أي أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم بالعلم. وأعطاه علمًا لم يعطه للملائكة. ثم جعل آدم هو الذي يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها.

وفي هذا ما يوضح أن الله قد اختص الإنسان من دون مخلوقاته بخصيصة عظمى. إنه العقل الذي أودعه علمه سبحانه، فتعجز أزكى مخلوقاته - وهم الملائكة - عن الإحاطة بما أحاط به الإنسان من علم وإدراك وفي ذلك ما يشير إلى مكانة عظمى للإنسان قد حازها، فاستحق وعن جدارة استخلاف الله في الأرض.

فكان التكليف بحمل التبعات الكبرى، فقد سلم الله زمام كل ما في الأرض له، وأطلق يده فيها، يبنيها ويحسن البناء. يجملها ويزينها زينةً وبهاءً، فكان الإنسان هو الأجدر في نهاية المطاف بالاستخلاف في هذا الملكوت، من هنا كان التفكير والذي هو لب العلم ومحوره فريضةً إلهيةً بمقتضى أوامره للإنسان في آياته.

وكم هي نعمة كبرى تلك التي حازها الإنسان من دون سائر المخلوقات. إنها نعمة العقل. العقل الذي ارتقى به الإنسان عاليًا. لكن العقل من دون تفكير كالجسد بلا روح، فبهاء العقل ورونقه هو بالتفكير، ونماء العقل وثمرته تكون بالتفكير أيضًا.

فالعقل من أعلى وأعظم نعم الله على الإنسان، من هنا كان التفكر فريضةً لا فضيلةً. بل إن التفكير فريضة إلهية، فكلما أمعن الإنسان تفكيرًا كلما تكشفت له الحقائق وصارت حياته كلها ملؤها النور والهداية، وقد امتدح سبحانه وتعالى الذين يفكرون، ويستخدمون عقولهم للوصول إلى الحق.

قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (البقرة: ٢٦٩)، وهم أصحاب العقول النيرة المفكرة.

أمرنا الله - عزوجل - في ضرورة التفكر بقوله تعالى في أكثر من آية: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ فالتفكير أغلى وأثمن ما يملكه الإنسان، فهو عبادة من العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾

(آل عمران: ١٩١).

والقرآن الكريم هو الملاذ الآمن، والنور الذي أنزله الله على رسوله ليخرج الناس من الظلمات ويحيوا حياةً طيبةً على أسس الخير والصلاح، ففي هذا الكتاب المبين الرشاد والإرشاد إلى ما فيه الفلاح والفوز والنجاة، حين يكون كل ذلك في إعمال العقل بالتدبر والتفكر. فيقول تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ**﴾ (الحجر: ١).

ويؤكد سبحانه وتعالى في موضع آخر مبينًا عظمة هذا الكتاب، في حثه لبني الإنسان بإعمال العقل. قال تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (يوسف: ١ - ٢)، والمبين هو الذي يبين الحق من الباطل والحلال من الحرام، وهو معجزة عقلية إلى يوم الدين.

ويسير بنا بيان القرآن بالحض على التعقل:

- حين تأتي عبارة [**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**] في خمسة مواضع من القرآن الكريم. منها تلك الآيات: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة: ٢٤٢).

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(الحديد: ١٧).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(الأنعام: ١٥١).

- **ثم تأتي عبارة [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] اثني عشرة مرةً على طول السياق القرآني. منها تلك الآيات:**

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠).

﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٧).

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(البقرة: ٤٤).

- **وترد عبارة [لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] في القرآن سبع مرات. منها تلك الآيات:**

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٣٥).

﴿وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢).

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(الروم: ٢٤).

ليكمن خلف كل هذا مراد الله لنا في كتابه العزيز، أن الإسلام دين يدعو للتفكر من أجل أن نكون جديرين بالكتاب المبين الذي أنزله المولى سبحانه وتعالى بلسان عربي مبين، والإسلام دين يدعو إلى الفكر والتفكر.

- **فأتت عبارة [لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ] مرتين:**

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٦).

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٦).

- وجاءت عبارة [لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] ثلاث مرات:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

- وأتت عبارة [لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] سبع مرات منها تلك الآيات:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣).

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

كل هذا من أجل أن لا يكون هناك سلطان على العقل يحول بينه وبين الوصول للحقيقة التي أراد الله لنا أن نصل إليها عبر العقل والتفكير، لنسقط تلك الهيبات والسلطات الروحية المزعومة، فلا اعتداد بالخرافة والدجل والشعوذة، ولا اعتداد بوقوف العقل وتحجره عند أقوال هي رهينة الماضي السحيق، ولا اعتداد بكهانة الكهان والرهبان ورجال الدين.

ولا اعتداد بسلطات زائفة لعلماء الدين، ممن أرجفوا العباد وخوفوهم مغبة الاقتراب من التفكير والتدبر، واستطاع هؤلاء - علماء الدين - على العباد بقدرة زائفة على التحريم

والتحليل والإدانة والغفران[1]، وقد نهنا الله تعالى من الاستسلام لخديعتهم، وكثير منهم خادعون قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).

وقد دعا الله الإنسان ليتفكر في كتابه القرآن الكريم ليشحذ فيه همة تفكيره، لتتحقق له أعلى المراتب الإنسانية حين يمعن الفكر في كلام خالقه، وهذا من شأنه الارتقاء به إلى ذروة الفهم والنضج والوعي، ويقف في الصدارة من التفكير هنا في القرآن، بحث واستكشاف الإنسان لأسرار الهداية في هذا الكتاب المحكم، ذلك الكتاب الذي بنى التصور الحق الذي يحتاجه الإنسان في نظرته إلى الله تعالى الخالق، ومفردات الوجود الذي حولنا الكون والحياة وهي قضايا دعانا الله للتفكر فيها وسبر أغوارها.[2]

نعم؛ هذا القرآن هو كتاب البيان الأوحد في كل ما تتطلبه هذه الحياة من حقائق الوجود والعقيدة، وأوامر الله ونواهيه.

وفي سياقه العام حديث عن وحي الله إلى الأنبياء السابقين، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٣ - ٤٤).

فليتصور الإنسان كيف تصبح الحياة بدون هداية هذا القرآن؟ فما الحلال وما الحرام؟ وما الحق وما الباطل؟ وما الخير وما الشر؟ وما الإيمان وما الكفر؟ وأنى للناس أن يتبينوا كل ذلك؟ وهذا يعني أن كل آية من آيات الهداية القرآنية جاءت بالتمام والكمال

(١) العلماء المخادعون استغلوا جهل من يسمعهم ليجعلوهم من أتباعهم ويفتون لهم ما يخدم مصالح العلماء هؤلاء لا ما يخدم الأمة.

(٢) علينا التدبر في الكون وكل ما فيه من جزئيات وعلينا تتبع طريق الحق الذي رسمه القرآن الكريم لنعي ما حولنا ونصل إلى تحقيق مقصد الله من استخلافنا في الأرض.

لتسد فراغًا كبيرًا في حياة البشرية، حتى أصبحت ضرورةً من ضروراتها. لقد جعل الله القرآن دستور هداية ورشاد يقود عباده للخير والصلاح ويحذرهم من الوقوع في الضلال.

وقد تعددت أساليب القرآن في الحض على التفكير، فتارةً يأتي الحث على التفكير بصيغة الاستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الأنعام: ٥٠).

وقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأعراف: ١٨٤).

وقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ**﴾ (الروم: ٨).

ففي الآيات الثلاث دعوة تبعث في النفس الحماس في التفكير، وترصد للإنسان قضايا بعينها توجب عليه فيها التفكر وإمعان النظر، في صيغة استفهام إنكاري يفيد ضرورة صب جام التفكير هنا، لنفض غبار السكون والجمود والبلاهة عن النفس فتنشط للتفكر. بهذه الإثارة يحفز القرآن ويدعو إلى التفكر.

وتارةً يأتي الحض على التفكير بصيغة التذكير بالنعمة كما في قوله تعالى: ﴿**يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ١١).

وهذه الآية تعبر عن دعوة الخالق سبحانه لعباده بالبحث والتفكر في كيفية استزراع الزرع والثمرات واستحداث بذورها ومعرفة مواسم زراعتها وكيفية الحفاظ عليها والتوسع في زراعتها لتكون تلك النعم رزقًا للإنسان وطعامًا شهيًّا.

فقد رفع الله في قرآنه أولئك الذين يتفكرون في كتابه، حين خلع عليهم في آياته بأنهم ﴿**أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ وأهل العقول والإدراك؛ لأنهم تفطنوا إلى ما لا يتفطن إليه غيرهم من إعمال فكرهم في خلق السماوات والأرض، وأدركوا ما لم يدركه غيرهم من حكم هذا الخلق وأسراره.

ولهذا التميز عندهم وصفهم الله سبحانه بأنهم أولو العقول الخالصة، والتفكر عبادة لمعرفة الله وإدراكهم لعظمته وقدرته وتيقنهم بيوم الحساب فيؤمنوا به وحده لا شريك له.

وتارةً يأتي الحض على التفكير بصيغة ضرب المثل لأجل التعقل وشحذ النفوس، ودفعها إلى التفكير في دلالات تلك الأمثلة، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (يونس: ٢٤).

إنه بقدر التفكر في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله، وآياته في الأنفس والآفاق، وسننه وحكمته في البشر وسائر المخلوقات، يكون ارتقاء الناس في العلوم والأعمال، من دينية ودنيوية، فلتفكر الأمة كيف تصلح شؤون دينها ودنياها، فإنه إن حادت عن طريق الحق والصلاح فلن تفوز برضى الله فيتبؤوا بغضبه وسخطه.

لذا وتنفيذًا لمراد الله يُرْتَجى منا أن نعلي من قيمة العقل، ونيسر له المناخ الحر في التفكير والبحث في كل مناحي الحياة، بما تعود نتائجه على سعادة الإنسان في دنياه وآخرته، ولن يحدث هذا إلا بإزالة تلك الحواجز الداكنة، والإجراءات العقابية القاسية لكل من حاول أن يطيع الله في إعمال عقله، وتوظيفه في التدبر والتفكر في كل مخلوقاته.

أطلقوا العقول وحرروها من أسر الروايات، ودعوها تحلق في ملكوت الله إذ أمرها الله بذلك في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾

(آل عمران: ١٩١).

وليعلم كل من اتخذ قرارًا بمنع إنسان من البحث أو التفكير، فإنما يرتكب إثما عظيمًا بمنعه أول فريضة أناط بها الله الإنسان في عقله ألا وهي التفكير فلا يحق لمخلوق مهما بلغ شأنه ومكانته وسلطته أن يمنع فريضةً إلهيةً، بل هي من أهم الفرائض والتي بدونها لا يستطيع الإنسان أن يعرف طريق الحق من الباطل.

(٧) أهل الذكر

لقد ابْتُلِيت الأمة الإسلامية بتسلط بعض الناس من الذين اكتسبوا بعضًا من المعرفة، وتصدوا لقيادة الدعوة الإسلامية، وقدموا أنفسهم على أنهم أهل التقوى والمعرفة وحدهم فحسب، وعلى العامة إطاعتهم وتقليدهم، وجعلوا من أنفسهم وكلاء عن الله في الأرض وأوصياء على الدين.

أولئك الذين خاضوا في آيات الله تفسيرًا وتأويلًا وقد عجزت قدراتهم العقلية عن إدراك مراد الله في آياته لخلقه، فطوعوا النصوص لمرادهم في تناقض صريح مع مراد الله من خير وصلاح للناس جميعًا.

وإذا بهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم وكلاء وأوصياء على كتاب الله وآياته، إذا بهم يثقلون ظهر النصوص القرآنية الصريحة بمعانٍ ليست هي ما تعنيه وتقصده آيات الذكر الحكيم، وكان مأربهم واضحًا جليًّا من وراء ذلك الخلط واللبس في التفسير.

إنهم يريدون صكًّا من القرآن بأن لهم الفوقية على العباد، وهم المرجع والواسطة بين الناس وفهم القرآن.

ومن ذلك ما نعرض له في شأن الآية الكريمة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٤٣ - ٤٤).

حيث راحوا يروجون لأنفسهم في تأويلها؛ إذ ادعوا أن الآية تعنيهم كونهم أهل اختصاص في الشريعة. فهم أهل الذكر الذين لا بد من الرجوع إليهم، وهم سدنة وحراس

القرآن، وهم وفقط من يقولون مقاصد الله فيه ليصبحوا المرجع الوحيد لتفسير كتاب الله ومعرفة مراده من آياته.

وادعوا أن الآية المذكورة قلدتهم الوصاية على معرفة القرآن الكريم وهم أعلم من غيرهم في أمور الدين، وعلى المسلمين الرجوع إليهم في سؤالهم، وفي كل أمر يتعلق بدينهم، واحتكروا المعرفة لأنفسهم ليعطلوا عقول الأمة عن أن تتدبر في كتاب الله القويم من أجل أن يحفظوا لهم مكانةً زائفةً في مجتمعاتهم لتظل هالة التكريم والتقدير تحيطهم دومًا.

من هنا نراهم يلوون أعناق النصوص، ويأخذون الآيات أخذًا كي تصب في حماية وضعهم ومكانتهم التي يتهددها الخطر بمجرد ذكر العقل، أو استدعاء التفكير.

وفي وقفتنا مع تأويلهم لتلك الآية الكريمة ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ والتي سحبوا تفسيرها سحبًا على أنفسهم، على أنهم المعنيون بأهل الذكر.

نقول وبالله التوفيق توضيحًا لمعناها:

بالوقوف على معنى كلمة الذكر في القرآن يكون بداية الإمساك بمعنى الآية: فكلمة «الذكر» في القرآن الكريم إضافة إلى الموارد التي اسْتُخْدِمت فيها بمعنى التذكر والتذكير ونظائرهما أُطْلِقَت أيضًا على الكتب السماوية بما في ذلك «التوراة».

فأتت كلمة **الذكر** بمعنى **القرآن** في الآيات التالية:

قال تعالى:

﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ (الحجر: ٦ - ٧).

﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٤٤).

﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**﴾ (الأنبياء: ٥٠).

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم: ٥١ - ٥٢).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وأتت كلمة **الذكر** أيضًا بمعنى **يجمع القرآن** مع الكتب السماوية التي قبله.

قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

وأتت كلمة **الذكر** أيضًا بمعنى **الآيات الإلهية والكتب السماوية** كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

حيث المقصود من «الذكر» في هاتين الآيتين: «التوراة».

وقد أوضح القرآن الكريم في أكثر من موضع أن النبي ﷺ، إنما بُعِث في «الأميين»، فالعرب يسمون بالأميين لأنهم ليسوا أهل كتاب، ولا علم لهم بالكتب السماوية، فقد صرح القرآن الكريم بأن قوم النبي قبل بعثته لم يكن لهم معرفة بأخبار الأنبياء السابقين. قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (هود: ٤٩).

وكما في قوله تعالى:

- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨).
- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠).

- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥).

من هنا كان منكرو بعثة النبي من قومه ومنكرو نبوته يقولون كما جاء في سورتي النحل والأنبياء - وكلاهما مكيتان - ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الأنبياء: ٣)، وكانوا ينتظرون أن تتنزل عليهم الملائكة مباشرةً وتعلمهم مسائل الدين وكانوا يقولون: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٧).

فقال القرآن ردًّا على هذا التحجج والاقتراحات: إن الإنسان مناسب ومقبول أكثر من غير الإنسان، ليكون أسوةً وقدوةً لسائر البشر، وقد كانت سنة الله في البشر دائمًا أن يرسل لهم رسولًا من بينهم ومن مثل جنسهم، ولم يكن الأنبياء أبدًا أفرادًا استثنائيين لا يحتاجون إلى أكل الطعام أو لا يموتون.

ويوجه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى النبي كي يتعقله مشركو مكة ممن أكثروا الإلحاح في الجدال معه؛ فيقول تعالى في الآية ٧ من سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب لقولهم ما هذا إلا بشر مثلكم، والمعنى لم نرسل قبلك يا محمد إلا رجالًا من بني آدم ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ لا ملائكة، لأن الشكل إلى الشكل أميل وبه آنس وعنه أفهم ومن الأنفة منه أبعد.

ولهذا السبب بالذات يقول القرآن: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٥)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

فهذا خطاب من الله إلى مشركي مكة: أي فاسألوا أهل التوراة والإنجيل. ﴿**إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ وذلك أنهم كانوا يصدقون اليهود والنصارى فيما كانوا يخبرون به من كتبهم في الوقت الذي كانوا فيه يكذبون النبي.

وهكذا تنجلي المعاني واضحةً بالتدبر والتفكر في كتابه، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، فما أَجْمَلَ في موضع قد فَصَّلَ في آخر، ففي تلك الآية الكريمة من تسلية النبي ﷺ، وكذا الرد على المشركين من قومه فيما أثاروه حوله ﷺ من شبهات.

وقد حكى القرآن في مواطن عدة إنكار المشركين لبشرية الرسل، وقد أتى الرد عليهم بما أعجزهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (يوسف: ١٠٩).

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا**﴾ (الإسراء: ٩٤).

وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ (التغابن: ٦).

من هنا يتأكد لنا أن المراد من قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ علماء أهل الكتاب أي: لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر في كل زمان ومكان، فإن كنتم في شك من ذلك (أيها المكذبون) فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، فسيبينون لكم أن الرسل جميعًا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إيماء إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة، والتمويه لتضليل الجهلاء، ولذا جيء في الشرط بحرف "إن" الذي يفيد الشك.

وخلاصة بيان توضيح ما تعنيه الآية الكريمة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ ذلك أنه بسؤالكم أهل الكتاب، ستصدقون وتتأكدون أن الله بعث محمدًا رسولًا بكتاب كريم، كما بعث من قبله إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين من قبلهم كي يتأكدوا من مصداقية الرسول محمد ﷺ، حيث أنهم كانوا يصدقون اليهود وهم أهل كتاب، يعيشون بينهم ويتعاملون معهم في التجارة، وسيتأكد لكم منهم ما أخبركم به رسول الله ﷺ بأنه مُرْسَل للناس كافةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦).

(٨) القراءة والدعوة للعلم

إن نزول أول آية على الرسول الكريم بدأت بأمر الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ١ - ٥).

بتلك الآيات كانت بداية الأمر الإلهي (اقرأ) وما في ذلك من دعوة للعلم، فيها يبين الله لرسوله كيفية خلق الإنسان، وهو سبحانه الذي علم الإنسان بالقلم، علمه يوم خلق آدم عنده في الملأ الأعلى، علمه كل العلوم وأنواع المعارف المختلفة منذ خلقه حتى قيام الساعة، لحظة تلقى من الله وأخذ في عقله علوم الأرض والسماء، وما سوف يكتشفه الإنسان في مختلف المجالات، ليكون بنو آدم على قدر مسؤولية تسخير الكون كله لهم.

فهذا الملكوت الإلهي كله في خدمة الإنسان الذي كرمه الله على سائر مخلوقاته، من هنا كان أمر الله له بالقراءة والعلم ليكتشف ما أودع الله له في عقله من علوم، يكون تسخيرها في اكتشافات تصب في صالح وخدمة الإنسانية جمعاء.

وفي لفتة ذات دلالة عميقة تثير الانتباه أن الآيات تأمرنا بالقراءة، بل وتلح في الأمر بذلك، إذ حوت الآيات الخمس الأولى ست عبارات تخص القراءة والكتابة والعلم والتعلم!

فما أعلاه شرفًا هذا الدين حين يولي كتابه - القرآن الكريم - العلم والتعلم أهميةً قصوى بربط دلالة ذلك في أهم وسيلة من وسائل العلم؛ ألا وهي القراءة.

ولم لا؛ وقد أتت رسالة الإسلام لنشر العلم والمعرفة بشتى صنوفها. فما أرفعها منزلةً تلك التي حازها العلم في الإسلام، وما أعلاه قدرًا العلم في القرآن الكريم، وحسبنا في ذلك

أن يستهل المولى جل في علاه وحيه في خاتمة رسالات السماء بقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ١ - ٥).

وقد حوت الآيات الخمس من الوقفات الاسترشادية ما ينبئ عن عمق الإيحاء والمغزى...

- ففي الآية الأولى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ أمر بالقراءة على اعتبار أنها الوسيلة المثلى لولوج العلم والتحضر والتمدن والارتقاء بالذهن.
- وفي الآية الثانية: ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ نبأ من الله يحوي بين طياته حقيقةً علميةً مفادها أن أصل الإنسان من علق، وهي كتلة الدم العالقة بجدار الرحم وفي ذلك من الحث على معرفة الحقائق وأصول الأشياء؛ حيث لا يتم ذلك إلا بالبحث العلمي الدؤوب والدراسات المتعمقة، والتمعن في كل ما خلق الله في الأرض والسماء.
- وفي الآية الثالثة: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**﴾، وفيها ما فيها من إبراز عظمة ملكة القراءة وتكريم الله سبحانه وتعالى لمن جعلها تلازمه الحياة.
- وفي الآية الرابعة: ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ تتجلى إشادة الله للقلم في رمزيته المعبرة عن التعلم.
- وفي الآية الخامسة: ﴿**عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ يخبرنا الله تعالى عن صفة من صفات بني الإنسان وأهليته في تلقي العلم، وأن العلم ليس قاصرًا على فئة معينة من الناس، أو طبقة خاصة، أو جنس دون آخر، بل إن العلم حق للجميع كي لا يتسلط الكهان والنساك والأحبار وعلماء الدين عليه، ويجعلونه حكرًا لهم من دون الخلق.

ذلك هو الأمر الإلهي الأول للإنسان كي لا يتخبط في أوحال الجهل والتخلف، في كلمة (**اقْرَأْ**) وما تعنيه من دلالات عميقة، في الحض على طرق أبواب العلم والمعرفة، ثم أتبعت هذه الدعوة إلى القراءة، بدعوة إلى أختها، وهي الكتابة بالقلم ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ تنبيهًا وإشارةً إلى أنه لن تكون هناك حضارة لبني الإنسان إلا بالعلم، وقوام العلم وعماده في القراءة والكتابة.

لم تكن تلك الآيات التي وردت في سورة العلق هي الوحيدة التي تستثير قريحة الناس للقراءة والتعلم، بل قد أتى على طول سياق القرآن من الآيات التي تصب في اتجاه الأمر بالعلم والتعلم، وإبراز مدى أهميته وحتمية الأخذ به ونهج سبيله، أتى في خطاب الله للإنسان عبر آيات القرآن الكثير من الوقفات التنبيهية لأهمية العلم والمعرفة.

وفي القرآن الكريم سورة سُمِّيَت بسورة **"القلم"** حيث أقسم الله تعالى في تلك السورة بالقلم، وما يسطر العلماء بالقلم والحبر من العلوم والمعارف.

فقال تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ (القلم: ١)، وأقسم بالقلم، وأقسم بما يسطره الخلق ويكتبونه. والقسم بالشيء تعظيم له ورفعة، فكيف إذا كان من رب العالمين جل جلاله، فهذا تعظيم من رب العالمين للقلم والكتابة به ودعوته للناس للعلم والتعلم بالقراءة والكتابة.

وفي تدبرنا لقوله تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ (القلم: ١ - ٢)؛ لوجدنا الدلالة ناطقةً في إعلاء شأن الكتابة التي هي عصب العلم، ولو أمعنا النظر أكثر في الآيتين لتجلت لنا الحكمة في الربط بين ما أقسم الله به: ﴿**الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ والذي أقسم الله تعالى عليه: ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾، فالمُقْسَم عليه هو صدق ما بلغ به الرسول عن ربه، ودحض دعاوى المبطلين الكاذبة والافتراءات التي أطلقوها على النبي.

وفي ذلك من الدلالة على أن العلم قد أيد كلام الرسول الذي نقله وبلغه عن ربه، ما يعني أهمية العلم والمعرفة والتعلم، وكل ذلك يُعَد قواعدَ هامةً يرتكز عليها الخطاب الإلهي الذي أُنْزِل على النبي ﷺ وقام بتبليغه للإنسانية جمعاء.

فالعلم قرين هذا الدين وروحه الذي يحيا بها، على خلاف الأديان التي وقعت الخصومة بينها وبين العلم حتى لجأ أبناء ذلك الدين لإحداث مذهب الفصل بين الدين والدنيا على مبدأ (ما ليقصر لقيصر وما لله لله)، وأما رسالة الإسلام لا تقبل أي شيء يتنافى

مع الحقائق العلمية الثابة لأنها خلق الله، كما أن الدين وحي الله، ولا يمكن أن يتناقض ويتضاد وحي الله عزوجل مع خلقه ومخلوقاته.

لقد أنعم الله على الإنسان بنعمة العقل الذي جعله وعاء العلم والتدبر، كما أنعم عليه سبحانه إذ علم الإنسان ما لم يكن يعلم، فارتقى الإنسان وشرف بالعلم على سائر مخلوقات الله. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ (المجادلة: ١١).

المقصود بالعلم كل العلوم التي تهدي الناس لمعرفة سنن الله في خلقه، وقوانينه الضابطة للمخلوقات، وفيما خلق وأوجد في هذا الكون، وتسخير ذلك لخدمة الإنسان ورفاهيته، ومن ثم لتحضير المجتمع والسعي لرقيه وتمدنه. والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾

(آل عمران: ١٩٠).

من هنا يحتاج الأمر وقفةً إرشاديةً هامةً، فقد استطاع بعض المتنطعين وأوهموا الناس زورًا أن الآيات التي عنت بالعلم في القرآن إنما قصدت علم الشريعة فقط. وهؤلاء - ومنهم من يتصدر قياد الناس في الرأي والإرشاد الديني؛ فكانوا وراء تخلف الأمة عن ركب الحضارة - ممن يعتمدون تلك الآراء المريضة السقيمة، تلك الآراء المتخلفة والتي أخذتنا معها في دروب الماضي السحيق، فتقدم الغرب وتخلفت أمة القرآن. القرآن الذي يدعو للتفكر والعلم والقراءة، ساهم هؤلاء في تأخر العرب.

وقد أهدى الموروث التاريخي للمسلمين بفقهائه وكتابه ومفسريه للمتربصين والأعداء لنا ثغرات في جدار أمتنا، منها كان (النفاذ واستلاب مقدراتنا)[1]، لقد كان هذا الإرث البالي بمثابة معاول هدم استهدفت قيم القرآن وحالت دون رؤية حقيقة مراد الله من آياته.

(١) النفاذ: اختراق لمجتمعنا بالاستعمار الفعلي أو الفكري، واستلاب مقدراتنا: سرقة ونهب واستنزاف إماناتنا المادية والفكرية.

تلك الآيات التي هي في صالح البشرية جمعاء، فاستغل مفكرو الغرب الطامعين في ثروات العالم العربي، هذا الموروث الفقهي الذي أكل عليه الدهر وشرب حين تسللت دعوات المستشرقين بدهاء ومكر لغالبية مثقفي الأمة ...

تلك الدعوات الداعية للتخلص من جملة الدين والمنادة بالعلمانية كطوق نجاة للمسلمين كي يلحقوا بركب التقدم الحاصل كما فعلوا هم وحيدوا[1] الكنيسة عن حياتهم فتقدموا عبر إبعاد الدين وفصله عن الحياة.

وحمل أغلب مثقفي الشرق تلك الدعوات، ونادوا بالخلاص من الدين سعيًا للتقدم، والذي حدا بهؤلاء للإيمان بالفكر الغربي المهيمن.

هناك علماء دين لا يعرفون من الدين سوى الحيض والنفاس والعبادات والمواريث والشعائر والتسليم بالروايات التي لا يعرف صحتها وتصادمت مع القرآن صراحةً بوجود مثل هؤلاء، وبوجود أفكار كتلك التي شوهت شكل الإسلام ومسخته مسخًا حتى صار الإسلام كدين يشابه في كثير من أمره ما كانت عليه الكنيسة في العصور الوسطى، من هنا ينبري مثقفون يقفون في منطقة الحداثة زورًا.

وبدل أن يتدبروا الأمر ويدركوا أن هناك فرقًا بين الإسلام كمنهج قويم يدعو للعلم ويقدسه وبين القائمين عليه ممن تلبست عقولهم بأوهام ليست من الإسلام في شيء، وتحجرت عقولهم على نصوص من روايات بالية عقيمة أساءت للدين.

بدلًا من كل ذلك راح هؤلاء المثقفون يرمون الكل بالتخلف، المنهج الذي هو الإسلام، والقائم عليه والذين تسموا بعلماء الدين، وفي النهاية المستفيد الأكبر هو المتربص الطامع في ثروات منطقتنا.

(١) حيدوها: جعلوها حيادية وفصلوها عن حياتهم.

ويعيش العرب في صراع وفرقة واقتتال، يتساقط الأبرياء ويُدَاس الأطفال وتُرَمل النساء، ويأتي هو بعد خراب مالطة يجني ثمار ما أحدثناه بأيدينا. فماذا علينا لو أعملنا العقول وأخذنا بأمر الله في قرآنه حين أمرنا بأخذ طريق العلم والتعلم، ونتبع هديه ونعتصم بحبل الله: قرآنه الكريم.

لو فعلنا ما كان لنا أن نقع في تلك السقطة الكبيرة الآن، وما كان يكون هناك حاجة لوجود دعاة الدين ممن أطلقوا مصطلحات ومفاهيم تتعارض مع المنهج الإلهي وقرآنه الكريم لواقع الحياة.

والشواهد القرآنية كثيرة في أن آياته الحاثة على العلم، إنما قصدت كل العلوم والمعارف، كل ما هو من شأنه إسعاد الإنسانية في الدنيا والآخرة، كل ما هو من شأنه إعمار الأرض وزينتها.

يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (فاطر: ٢٧ - ٢٨).

لقد جاء قصد المولى تبارك وتعالى بالعلماء الذين يخشونه، أنهم علماء الطبيعة والحياة، بشكل خاص. فالدعوة هنا للتأمل في نزول الماء من السماء فتخرج ثمار الأرض بعد إنبات الزروع، والتأمل في الجبال ورسوها في الأرض بتوزيعات منضبطة، والتأمل في مختلف خلقه من الحيوانات بأنواعها، كل هذا معنى به علماء الفلك والطبيعة وغيرهم من علماء العلوم الحياتية الأخرى.

فكلما أمعن هؤلاء المتخصصون في تلك العلوم أمعنوا النظر والتدبر والتدقيق في دقة صنع الله تعالى وإعجازه، كلما ثارت في نفوسهم وقلوبهم نوازع الخوف والرهبة من عظمة الخالق فيما خلق.

ولقد حوى القرآن الكريم الكثير من الآيات الحاثة على العلم، والحاضة على البحث في أغوار الكون من حولنا كي تنفتح عقولنا وتعمل، ومن ثم يتحقق استخلاف الله للإنسان في الأرض بإعمارها، فلا يكاد القرآن الكريم يذكر بديع صنع الله إلا ويسرد جانبًا من عظمة الكون، ودقة صنعه وشدة إحكامه، وخضوعه لنظام عام يحكمه.

لا يذكر القرآن شيئًا من ذلك وما أشبهه، إلا ويتبع هذا الذكر بقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾، وأمثال هذه التعابير التي تُعْتَبر يدًا رحيمةً لطيفةً ناعمةً، تلامس أحاسيس الإنسان النائم أو الغافل عنها لأن يستيقظ ويرى آثار صنع الله وإبداعه، وكل ذلك دعوة إلى العلم والتعلم والمعرفة، ونبذ للأوهام والأضاليل وتوحي تلك العبارات بالنويح والاستغراب.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الذاريات: ٢٠ - ٢١) دعوة صريحة إلى دراسة بديع صنع الله في الأرض، وفي جسم الإنسان ووظائف أعضائه.

وفي قوله تعالى: ﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (يونس: ١٠١) دعوة إلى دراسة ماذا في السموات وماذا في الأرض.

وتتوالى الآيات التي يأمرنا الله فيها بالتزود بالعلم، والتي فيها يمدح أهل العلم:

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (النمل: ١٥).

وقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩).

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

إن أمة تؤمن بمثل هذا الكتاب وما فيه من توجيهات وتعاليم جديرة بأن تملأ طباق الأرض علومًا لولا أن تسلط عقول أدعياء الدين ممن جعلوا القرآن حبيسًا بين جدران روايات مضللة أذهبت بهائه وصرفت العقول عنه، فتاهت أمتنا في دروب مهلكة.

ولتصحيح المفاهيم في مراد الله من أياته لعباده في العودة للخطاب الإلهي القرآن الكريم نستمد منه النور والحكمة ليعيننا على رسم خارطة الطريق في إضاءة العقول وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ليتحقق لهم الرحمة والسلام والعدل والحرية والحياة الكريمة لبني الإنسان.

(٩) الروايات تحجب نور القرآن

وهكذا استطاع علماء اليهود والمجوس أن يغرقوا العرب المسلمين في أتون الدماء لأكثر من أربعة عشر قرنًا، وما زال النزف مستمرًّا إلى يومنا هذا، فليس ما يجري في سوريا ببعيد عنا، ولا ما يجري في العراق بغائب عنا، ولا ما يجري في اليمن والصومال وليبيا ببعيد أيضًا عنا، الأمة تعاني جراء هذا الضياع، ولذلك حذرنا الله في قرآنه بقوله تعالى لرسوله: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الجاثية: ٦).

وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ (الفرقان: ٣٠).

وهذا تحذير في الآية من الرسول منذ أربعة عشر قرنًا للمسلمين بأنهم سيهجرون القرآن، واليوم نعيش مع استدعاء الماضي بعد وفاة الرسول ﷺ ، وإذا به يتحقق وعد الله بالرغم من تحذيره للمسلمين، فيقول الرسول كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الجاثية: ٦).

إلا أننا ما زلنا ماضين خلف الروايات وما زلنا مستمرين في حياة الظلام كالخفافيش، ونردد ما يُرَاد لنا ترديده من دون تعقل وتدبر، فتم تغييب العقل ومن ثم انصرفنا وبعدنا عن القرآن، والله يأمرنا بإعمال العقل والتفكير في آياته ومراد الله سبحانه وتعالى فيها لعباده، حتى يستطيع المسلمون تصحيح المفاهيم التي شوهت رسالة العدل والسلام والحرية والمساواة والرحمة.

من هنا علينا الوقوف على خطاب الله لنا في قرآنه، والذي يدعونا فيه لاستدعاء العقل، وإلى التفكر والتدبر في كل شيء حولنا، وفي كل موطن نريد فيه خلاصًا من مرجعيات

مزعومة حذرنا الله منها، فيقول تعالى في ذلك: ﴿**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف: ١٨٥).

ويقول تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (الأحزاب: ٤٠). لتكون الوقفة السديدة مع تلك الآية، حيث فيها من البيان الإلهي الهام.

فما أحوجنا إليه الآن، ذلك أن الله لا يريد توظيفًا لأي بشر واستثمارًا لنسب أو قرب من النبي كي لا يتخذ أحفاد الرسول ﷺ ، أو ذوي القرابة منه مكانةً من قداسة لأجل نسبهم للنبي، أو صلة قرابتهم به، لتكون لهم مكانة مقدسة يستغلها الحاقدون على الإسلام حين يقدمونهم كشركاء في رسالة السماء.

بل ويضفون عليهم هالةً من العصمة، ومكانةً خاصةً عند الله كي يتم استخدامهم من خلال روايات مزورة، ومبالغات لا تنسجم مع القواعد القرآنية، كما أكدت ذلك الآية الكريمة أعلاه بأن الله اختار محمدًا وحده فقط لتبليغ الخطاب الإلهي للناس كافة.

ففي الآية الكريمة قطع للطريق على المتربصين بالدين الإسلامي ممن يريدون توظيف أقرباء الرسول وأحفاده في خدمة مآربهم الشيطانية لخلق فرق دينية؛ تتناقض مع رسالة محمد ﷺ، وتصطدم مع قواعدها لينصرف الناس عن القرآن الكريم، ومن ثم تحدث البلبلة والفرقة بين المسلمين ليؤسسوا على ذلك قواعد الفتنة والصراع داخل الأمة.

من هنا أوضح لنا القرآن في موضع آخر، أن لا اعتداد في هذا الدين بالأنساب ولا بالقربى حين المثول أمام الله. وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ (المؤمنون: ١٠١).

فيوم الحساب كل سيحاسب بعمله وما قدم من خير أو شر، إذ لا قيمة يوم الحساب للانتساب إلى نبي أو رسول، بل كل بعمله وتلك إشارة هامة إلى الذين يدعون أنفسهم

بنسبهم لبيت النبوة كالأشراف والسادة حينما يدعون انتسابهم لآل البيت، فلا وساطة لقريب أو صديق يوم الحساب.

والله يقول في ذلك: ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ (عبس: ٣٣ - ٣٧).

ويقول تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨).

حيث إن يوم الحساب لن يستثني أحدًا من البشر كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ (الزمر: ٦٩).

فلا ميزة لأحد، الكل سواء أمام الخالق الجبار، يطلبون رحمته واثقين بعدله وقضائه يوم الحساب، ولذلك يحذرنا الله من تصديق ما لا ينبغي تصديقه، أشباه تلك الروايات أو المقولات حتى لا يصرفنا ذلك عن قرآنه الكريم، الذي جاء ومعه النور ليخرج الناس من الظلمات، وأكد سبحانه للناس أن استمسكوا بالعروة الوثقى التي تربط بينهم وبين خالقهم.

قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

فالاعتصام بحبل الله وهو القرآن الكريم، وهو أيضًا العروة الوثقى التي تربط الإنسان بخالقه، هذا الاعتصام يجنبنا العداوة والبغضاء، ويؤلف بين القلوب ليصبح الناس إخوانًا تحت مظلة واحدة وهدف واحد: يتبعون النور الذي أنزله الله على رسوله فيتحقق للناس الأمن والسلام.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (المائدة: ١٦).

وظهور المذاهب المختلفة من سنة وشيعة وغيرهما من المذاهب التي كان دافعها التمييز إنما يخلق طوائف متعددة، وكل طائفة تستند إلى مرجعية ابتدعت روايات واختلقت أخبارًا وأحاديث منسوبةً للرسول ﷺ من أجل أن تجعلها قاعدةً لبناء فقه ديني خاص بها يختلف عن الطائفة الأخرى، الأمر الذي أدى إلى تفرق المسلمين شيعًا وأحزابًا.

ويكمن الهدف من ذلك كله في تحقيق غاية أعداء الدين الإسلامي، في جعل المسلمين ينصرفون عن القرآن الكريم ليسهل عليهم تفريقهم وزرع بذور الفتنة فيما بينهم.

وهكذا أصبح حال المسلمين في تنافر وصراع وقتال إلى العصر الذي نعيشه، حيث نشأت فرق جديدة ترفع شعار الإسلام وتغتال قيم الحرية وحقوق الإنسان، وارتكبت أبشع الجرائم بجز أعناق الأبرياء، وتدمير القرى والمدن واغتصاب الأطفال والنساء.

فهم إنما يعيثون في الأرض فسادًا، ولم يراعوا أوامر الله في عدم الاعتداء على الناس، ولم يتبعوا ما جاء في أمر الله سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (القصص: ٧٧).

تلك هي أوامر الله للناس جميعًا، فهل اتبعت تلك الفرق الإرهابية أمثال داعش، والنصرة، والتكفير والهجرة، والإخوان، والسلفية، والقاعدة وغيرهم والقائمة طويلة ممن هم على شاكلتهم. هل اتبع هؤلاء ما جاء في هذه الآية وفي غيرها من حفظ الدماء والكف عن العدوان؟

وهل يعتقد هؤلاء أنهم بمخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى يمكنهم أن يدخلوا الجنة بأعمالهم الإجرامية؟ أم سيُلْقَون في جهنم وبئس المصير بما ارتكبوا من بشائع تقشعر لها القلوب؟ فما ترك هؤلاء المتأسلمون كبيرةً إلا وفعلوها، هتكوا الأعراض، روعوا النساء والأطفال، نحروا الرجال أمام الكاميرات كما تُنْحَر الدواب ...

لكنهم بفعلهم هذا قد لبوا نداء الشيطان، ولسوف يُلْقَون في جهنم وبئس المصير، وقد قال الله تعالى في أمثال هؤلاء: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (إبراهيم: ٢٢).

فلا سبيل للمسلمين للخروج من هذا النفق المظلم الذي ما زلنا نرزح في منعطفاته منذ أمد بعيد وإلى يومنا هذا، لا سبيل إلا بالعودة للخطاب الإلهي ذاك الذي في القرآن الكريم، لنستلهم منه النور الذي به تستضيء عقولنا، وترتقي معه نفوسنا فتمتلئ بالرحمة والمحبة والعدل والسلام، لعلنا نستوعب مراد الله من آياته لخلقه لنحيا حياةً هنيئةً في ظلال من الطاعة لله استعدادًا للقاء رب العالمين في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من عمل عملًا صالحًا واتقى الله واتبع هداه.

لذا فإنني أقترح في الوقت الذي يبحث فيه المسلمون في تجديد الخطاب الديني، علينا أن نفكر جميعًا بأن نستدعي لحظات تاريخية قبل أربعة عشر قرنًا، كي نتصور فيها أنفسنا في حضرة رسول الله ﷺ، حيث يتلو علينا القرآن الكريم كما أمره الله بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (آل عمران: ١٦٤).

فنتلقى منه ﷺ ما ينزله الله عليه من آيات محكمات، نتعلم منها الحكمة، ويوضح ﷺ لنا ما جاء في كتاب الله من حكم ومواعظ وقيم وعبادات وتشريعات، قد كلفه الله بمسؤولية تبليغ هذا الكتاب للناس كافةً كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل: ٨٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

فنظل نستمع إلى ما يتلوه علينا رسول الله ﷺ من آيات القرآن الكريم، ويفسر لنا مقاصد آياته التي تدعو الناس لما يصلحهم ويحقق لهم الأمن والسلام.

علينا إذا اتباع الخطاب الإلهي الذي هو كتاب الله للناس - القرآن الكريم - كما علينا ألا نتبع تلك الاستنتاجات البشرية والاجتهادات المتكئة على أقوال منسوبة للصحابة لا يُعْرَف مصدرها، ولا من هو وراء نسبتها للصحابة. علينا الابتعاد وأن ننأى بأنفسنا عمن جعلوا من أنفسهم متحدثين باسم الدين وباسم الله ممن ظنوا بأنفسهم أن العلم والمعرفة حكر عليهم من دون غيرهم، والله تعالى يقول في شأن هؤلاء: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣).

فلا اجتهادات بشرية، ولا خطابات دينية متعددة، بل هو خطاب إلهي واحد، ورسول يتلو على الناس آيات الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم دينهم الذي ارتضى الله لهم، ويحذرهم مغبة الابتعاد عن كتاب الله، وما جاء فيه من تشريعات محكمة تحقق لهم الأمن والأمان في الدنيا والآخرة.

ذلك أنه لما تسلم قيادة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ صحابته، بعد أن عايشوه وتلقوا منه الشريعة وسمعوا منه القرآن يُتْلَى، وأخذوا عنه فقه العبادات أتى عهد جديد فيه توقف وحي السماء بعد تمام الدين واكتماله.

وأتى مع هذا العهد ما لم يتوقعه هؤلاء الصحابة من أمور اشتدت بهم، فكان صراع الواقع معهم صراعًا عنيفًا، فلم يكن بد إلا من صيرورة الحياة وفق قواعدها البشرية المألوفة، فتغير المنهج الذي عاشوا بقواعده مع رسول الله ﷺ ، ليس تبديلًا منهم ولا

تفريطًا فعلوه، بيد أنهم بشر كما البشر حين تأخذهم قواعد الدنيا لمنطقها الذي فرض نفسه عليهم.

سادت المفاهيم الدنيوية مختلطةً بتعاليم الإسلام، فتراجع التفاعل مع كتاب الله لأنهم لم يستطيعوا دفعًا للجموع التي تحللت من الالتزام بنهج القرآن، حيث نشأت طوائف عدة: خوارج، تشيع، مانعو الزكاة، مدعو النبوة ... الأمر الذي ترتب عليه نشوء فرق دينية سياسية تسببت في الاقتتال بين المسلمين، بما أملت عليهم ظروف الواقع والصراع على السلطة.

فطغت الدنيا عليهم وسخرت العقول لخدمتها، وأصبحت الغايات تبرر الوسائل. ويمر الزمان ويخفت صوت القرآن، ويعلو صوت الرأي بعدما أهالوا على الآيات ركامًا من الروايات، من هنا تراجعت مقاصد رسالة الإسلام، وتزاحم الرواة في سرد آلاف الأساطير، فاستحكمت بعقول صفوة ما يُسَمون بعلماء الدين، عندما برزت طبقة مميزة في المجتمع الإسلامي، احتكرت المعرفة والقدرة على تفسير القرآن، وتوضيح مقاصد آياته.

وقد اعتمدت في ذلك على الروايات، وجعلتها مرجعًا لفهم نصوص القرآن وتفسيره، وغابت عنهم حقيقة الخطاب الإلهي لخلقه وصار ما صار حتى وصلت النتائج إلينا فيما نعانيه اليوم من سوء وتخلف وتفرق وتمزق.

(١٠) مراجع الخطاب الديني السني والفرق بينه وبين الخطاب الإلهي

أولًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح البخاري رواية ٢٤:

حدثنا ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنا محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله".

وفي صحيح البخاري رواية ٣٧٩:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أُمِرْت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حُرِّمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى".

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

- وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

هذه الآيات الثلاث تدل بكل وضوح على أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الحرية المطلقة للناس في اختيار العقيدة التي يشاؤون، فلا وصاية لأحد عليهم؛ نبيًّا كان أو حاكمًا أو مرجعًا دينيًّا، فالله وحده كفيل بعباده، وحسابهم جميعًا يوم الحساب، وكلف رسوله ﷺ بالبلاغ إذ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠).

وقال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

من هنا يتبين لنا الآتي: أن الروايتين الواردتين أعلاه في الخطاب الديني السني لا تتفقان قولًا وفعلًا مع صريح الآيات المذكورة تلك، ولا يُعْقَل بأي حال أن الرسول ﷺ يقول ما يخالف كلام الله في القرآن.

في حين أن بعض المجموعات الإرهابية تستدل بهاتين الروايتين في قتل الأبرياء بعد أن جعلوا من أنفسهم قضاةً ينوبون عن الله في القصاص من الناس، ويصادرون حقهم الذي منحهم الله لهم في حرية اختيار العقيدة التي يريدون اتباعها بمحض إرادتهم.

ثانيًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح البخاري رواية ٣٠٨٥:

(حدثنا عمر بن حفص أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحدكم يُجْمَع في بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله إليه بأربع كلمات

فيُكْتَب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم تُنْفَخ فيه الروح فالرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار").

الخطاب الإلهي:

إن الله سبحانه العادل قد وضع قواعد العدل المطلق لتقييم أعمال خلقه وأسس عدله ليوم الحساب، وهذه القواعد هي:

القاعدة الأولى:

- قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨).

القاعدة الثانية:

- قال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ (هود: ١١٤).

القاعدة الثالثة:

- قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (غافر: ١٧).

القاعدة الرابعة:

- قال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ (الأعراف: ٨ - ٩).

القاعدة الخامسة:

- قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

القاعدة السادسة:

- قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يس: ٥٤).

من هنا يتبين لنا الآتي:

كيف تستقيم الرواية المذكورة أعلاه مع ما جاء في القرآن الكريم (الخطاب الإلهي) للناس كافةً مؤكدةً آياته لقواعد العدل يوم الحساب، بأن عمل الإنسان سواء كان خيرًا أو شرًّا سيُسَجَّل في كتابه دون ظلم حتى لو كان في مستوى ذرة، ولا ينبغي للمؤمن أن يقبل روايات تتعارض مع قواعد العدل والإنصاف التي جاءت في القرآن الكريم.

ولا يمكن للرسول الأمين أن يقول للناس أقوالًا ما أنزل الله بها من سلطان، من شأنها أن تهدر عمل الذي استقام في حياته، وحاشا لله أن يكون الحساب بهذه الطريقة التي وردت في الرواية، فهذا لا يستقيم وكمال عدله سبحانه، حيث لا يضيع الله حقًّا لعبد من عباده، حتى ولو كان مقدار ذرة.

ثالثًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح مسلم رواية ٢١٦٣:

حدثنا عبد الله عن أبي بكر عن جده أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم".

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦).

- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤).

وهذا أمر من الله لعباده باتباع الأخلاق الحميدة السامية، والتعامل مع الناس جميعًا بالتسامح والبشاشة وبالترحاب لتتقارب القلوب وتنشأ المودة بين الناس، ويتحقق بذلك التعارف والتعاون بينهم.

من هنا يتبين لنا الآتي:

إن هذا السلوك الذي تدعو إليه الرواية، هو سلوك لا يمت إلى الإسلام بصلة ولا إلى عظمة أخلاق الرسول الكريم حينما يصفه الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، فكيف تستقيم هذه الرواية الشاذة والمبعثرة؟ حيث لا تخرج مثل تلك الكلمات إلا من نفوس مريضة وسلوكيات محتقنة لا تعرف الرحمة ولا التسامح.

رابعًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح مسلم رواية ٤٠٥٩:

حدثنا أبو كريب عن ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يُقَال له لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يُخَيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله.

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧).

تساؤل هام: كيف تستوي الرواية المفتراة على عائشة (رضي الله عنها) عن سحر الرسول ﷺ، وبين وعد الله سبحانه له بأنه سيعصمه من الناس ويحميه من أي اعتداء؟ أليست هذه الرواية المراد بها الطعن في وعد الله لرسوله والطعن في القرآن الكريم، وأن الله قد تخلى عن حمايته وحفظه من كل أنواع العدوان؟!

فضلًا عن ذلك فهي مدعاة للتشكيك في القرآن الكريم، عندما تُنْقَل الرواية المفتراة أن رسولنا قد سُحِر وتعرض لعدم إدراك ما يفعله من أثر السحر، ألا تؤكد تلك الرواية صحة إدعاءات الكافرين كما يقول سبحانه: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**﴾ (الإسراء: ٤٧)؟

- وقال تعالى: ﴿**أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**﴾ (الفرقان: ٨).

من هنا يتبين لنا الآتي:

إن هذه الرواية فرية أُرِيد بها التشكيك فيما ينزله الوحي على الرسول ﷺ من كتاب ونور ليخرج الناس من الظلمات، وتتفق الرواية المذكورة مع موقف الكافرين الذين اتهموا رسول الله بأنه رجل مسحور للتشكيك في رسالته.

فكيف التقى أهل الرواية وناقلوها في خطابهم الديني للناس مع الكافرين واتخذوا فريقًا موحدًا؛ ليؤكدوا ما يزعمه الكافرون ويخدمون ما يهدفون إليه من إقناع الناس بعدم الاستماع لرسول الله وهو يتلو آيات الذكر الحكيم، وما في ذلك من الدعوة للابتعاد عنه؟

إنها الحرب النفسية التي شنها الكفار بلؤم وحقد بينما المسلمون تناقلوها بجهل وغباء.

خامسًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح مسلم رواية ٤٣٧٤:

حدثني محمد بن رافع وقال حدثنا عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: ارجع إليه، فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة.

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ (يونس: ٤٩).

- وقال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ (الأعراف: ٣٤).

- وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ (السجدة: ١١).

- وقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ (آل عمران: ١٨٥).

- وقال تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ (الزمر: ٣٠).

من هنا يتبين لنا الآتي:

كيف للعقل الإنساني أن يستوعب هذا العبث؟ وكيف لمن اختل عقله أن ينقل روايةً تفتقر للمنطق وللإيمان بكتاب الله؟ وكيف يُعْتَد برواية إسرائيلية تستمد مراجعها

من التوراة؟ وكيف للمسلم أن يصدق اللامعقول ويغفل عن قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)؟ فالموت حق وكل نفس خلقها الله مصيرها الموت والفناء، فلا استثناء لعبد من خلقه. ولم يخلق إنسان وترفع عنه قوانين الحياة والموت، إن الله على كل شيء قدير.

سادسًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح مسلم رواية ٤٩٧١:

حدثنا محمد بن عمر عن أبي ردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: "يجيء يوم القيام ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى".

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ١٧).

- وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٣ - ١٥).

- وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

هكذا قدم أعداء الإسلام للخطاب الديني الوجبات المسمومة، واستطاعوا أن يجعلوا من الروايات مرجعًا وحيدًا لرسالة الإسلام، كما استطاعوا أن يعبثوا بعقول المسلمين شبابًا وشيبًا، وأوحى لهم الشيطان بنشر الأكاذيب على رسول الله لإحداث الفرقة بين المسلمين، ولينقسم المسلمون إلى فرق وأحزاب يضربون أعناق بعضهم بعضًا مستهدفين هدم الإسلام وتشويه قرآنه والتقليل من شأنه وتشويه صورته.

ملاحظة وتعقيب:

إن هذه الرواية من قالها مجرم، ومن نقلها نقل افتراء على الله عزوجل في عدله بين خلقه، وهو العدل المطلق، وهو الذي يأمر عباده بالعدل: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ (النساء: ٥٨)، فهل من العدل أن يغفر الله للمسلمين ذنوبهم ويحملها لليهود والنصارى؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم الكريهة، وجل وعلا يقول في شأن أمثالهم: ﴿**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا**﴾ (الكهف: ٥).

لقد بلغ بهم الافتراء بأن يوجهوا سهامهم المسمومة إلى خالق السماوات والأرض، ذلك أن الله لن يستثني مسلمًا كان أم كافرًا من الحساب والعقاب، وكل سيُسَاق بعمله إلى النار أو إلى الجنة، كي لا يتوهم المسلمون أنهم مهما أذنبوا فإن الله سوف يغفر لهم ذنوبهم على حساب غيرهم من خلقه، إن هذه الرواية افتراء على رسول الله ﷺ الذي جاء برسالة الرحمة والمساواة بين العباد جميعًا.

سابعًا: مصادر الخطاب الديني السني

في مسند أحمد رقم ٢٥١١٢:

حدثنا يعقوب قال حدثنا عن أبي اسحاق، قال حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: "أُنْزِلت آية الرجم ورضعات الكبير عشرًا، فكانت في ورقة تحت سرير في بيتي، فلما اشتكى رسول الله ﷺ تشاغلنا بأمره ودخلت دويبة لنا فأكلتها".

الخطاب الإلهي:

- **إرضاع الكبير:** فيما يتعلق بما جاءت به الرواية أعلاه بشأن إرضاع الكبير، فنجد قول الله تعالى يدحض تلك الفرية، ويؤكد على تحصين المرأة وحمايتها من الغواية، ومن النفس الأمارة بالسوء، ومن الوقوع في الذنب، والله يأمر رسوله محمدًا ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١).

ثم يؤكد الخالق سبحانه مرة ثانية حيث يقول لرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩).

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن جلابيبهن وأن يسترن أنفسهن، فكيف برواية مزعومة ومفتراة على رسول الله أن تسمح المرأة لرجل غريب أن يرضع من ثديها، أي خطاب هذا؟

إنها دعوة للفسق والفجور ومعصية الله، فكيف يمكن للمسلم أن يستوعب أو يصدق تلك الروايات التي تسيء إلى رسولنا الكريم حين يضعونه دائمًا في حالة صدام وتناقض مع القرآن الكريم؟ بل ويرفعون تلك الروايات إلى مصاف التقديس ويعتمدونها مرجعًا لا لبس فيه وتصبح من القضايا المؤكدة التي يعرضونها على المسلمين.

- **آية رجم الزاني والزانية:** جاء في الرواية نفسها أعلاه بشأن رجم الزانيات، ولم يرد نص في القرآن الحكيم بهذا الحكم القاسي واللإنساني، فقد وضع الله سبحانه تشريعًا لذلك فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢)، وهذه الآية تنسف رواية الدويبة التي أكلت الآية المزورة والشاذة.

ملاحظة وتعقيب:

كيف للعاقل أن يصدق إذا لم تصبه لوثة دماغية؟ وكيف للمسلم أن يؤمن برواية تستصغر إدراكه؟ وكيف قبل المسلمون منذ مئات السنين هذه الاستهانة بعقولهم؟ وكيف اعتمدوها في مراجعهم الفقهية؟ وكيف غابت عن عقولهم ما جاء في سورة النور في عقاب الزانية والزاني؟ وكيف قبل من يسمون بعلماء الدين موضوع إرضاع الكبير، وفاتت عليهم آيات الله التي تضع حدودًا فاصلةً في التعامل بين الرجال والنساء حتى لا يقع المحظور وتُرْتَكب المعاصي؟

ثم يتم تداول هذه الرواية لعدم النص على الرجم في القرآن الكريم بأن دويبةً أكلت الآية تحت سرير عائشة (رضي الله عنها)؛ فأي عقل يرضى بأن تتم استهانته واستغفاله وكيف يقبل علماء الدين بهذه الفرية؟

وأما فيما يتعلق بدويبة أكلت الآية من تحت السرير، فإذا سلمنا بصحتها فيكون قد تولانا الخبل والعته، وأن من يصدق هذه الرواية فلا شك بأنه يستهين بعظمة القرآن ودين الإسلام، مما يؤكد بأن تلك العقول كانت مغيبةً، والأفهام صدأت والران على القلوب قد استحكم في أسلوب تفكيرهم، فعطل الفهم الصحيح للقرآن الكريم ومقاصد شرع الله في كتابه الكريم.

ثامنًا: مصادر الخطاب الديني السني

في صحيح البخاري ١٧٩٢:

حدثنا سليمان بن حرب قال: عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم وكان أملككم لإربه".

الخطاب الإلهي:

إن الصيام هو الامتناع الكامل عن كل الشهوات من أكل وشراب، وعن الجماع مع النساء، وقد بلغ الرسول محمد ﷺ شروط الصيام، والذي يستهدف تدريب الإنسان على السيطرة على النفس والتحكم في أهوائها والقدرة على منعها عن المتعة والشهوات، وقد أكدت ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٧).

وبهذه الآية قد سمح الله للناس بمباشرة الجماع في الليل وليس أثناء الصيام، حيث يُعْتَبر الجماع قمة المتعة عند الإنسان، والصيام هو الامتناع الكامل عن كل المتع والشهوات، فكيف تم اختلاق الفرية على رسول الله ﷺ بأن يباشر زوجته عائشة وهو صائم، وكيف يمكن للعقل أن يتصور بأن حامل رسالة الهدى والإيمان يخالف الله فيما أمر به؟

إن الإشاعات وفبركة الروايات تستهدف النيل من التزام الرسول بأوامر القرآن واتباع أوامر الله، وهذه الروايات تم تزويرها كجزء من الحرب النفسية التي واجهها الرسول في حياته، واستمرت حتى اليوم يرددها المسلمون دون منطق ودون تفكير حينما رهنوا عقولهم وتفكيرهم لتلك الإشاعات واستسلموا لها حتى أصبحت لديهم مرجعًا رئيسيًّا للخطاب الديني، ولم ينتهوا للخطاب الإلهي الذي فيه القول الفصل كما جاء في الآية الكريمة أعلاه.

فليتق الله كل من تصدى للخطاب الديني والدعوة لدين الحق بألا يعتمد على مصادر الرواة واتباع إشاعاتها، بل عليهم أن يعودوا لكتاب الله الكريم ويجعلوه معيارًا وميزانًا لكل قول من أي مصدر ولكل رواية بصرف النظر عمن هو قائلها، ومهما بلغ علمه، فقول الله في كتابه الكريم فوق كل قول.

تاسعًا: مصادر الخطاب الديني السني

في شرح كتاب أبي شجاع - كتاب الحدود - فعل تارك الصلاة على ضربين: أحدهما: أن يتركها غير متعمد لوجوبها، وحكمه حكم المرتد. والثاني: أن يتركها كسلًا معتقدًا لوجوبها، فيُسْتَتاب فإن تاب وصلى وإلا قُتِل حدًّا، وكان حكمه حكم المسلمين. (مقتبس عن كتاب "متن التقريب المشهور بمتن أبي شجاع في الفقه على مذهب الإمام الشافعي").

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائدة: ٥٤).

- وقال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (البقرة: ٢١٧).

فكيف تستوي شريعة وأحكام أبي شجاع مع شريعة الله؟ إن كنا مؤمنين بكتابه الكريم فعلينا أن لا نقيم وزنًا لكل حكم يتناقض مع القرآن ونعتبره عدوانًا يشوه سماحة الإسلام، وحرية الإنسان في اختيار عقيدته.

أما فيما يتعلق بتارك الصلاة وقتله حدًّا فإن هذا القول لا يتفق مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

ملاحظة وتعقيب:

من أين أتى أبو شجاع بهذا التشريع، وكيف بنى عليه أحكامًا لم يشرعها الله في كتابه الكريم، وهو يعلم بأن الله احتفظ بحقه في التشريع لخلقه، وهذا التشريع الإلهي قائم على قاعدة حرية الاعتقاد المطلق، ومبني على العدل ومُؤَسس على أن حساب الناس فيما يتعلق بالعبادة هو أمر اختص به الله سبحانه ذاته ولم يعطه لأحد من خلقه.

وحكم المرتد يعني الحكم عليه بالموت، ولم يعط الله لبشر من خلقه حق إصدار أحكام الموت والقتل على المرتد أو من بدل دينه، فذلك حكم يختص سبحانه بمحاسبة عباده والحكم عليهم بما يقتضيه أمره.

عاشرًا: مصادر الخطاب الديني السني

البخاري ٦٩٢٣، مسلم ١٧٣٣ في صحيح البخاري ومسلم:

(إن النبي ﷺ بعث أبا موسى الأشعري (رضي الله عنه) واليًا على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فلما قدم عليه ألقى أبو موسى وسادةً لمعاذ، وقال: انزل وإذا رجل عنده مُوثَق قال معاذ: ما هذا؟ قال: كان يهوديًّا فأسلم ثم تهود. قال: لا أجلس حتى يُقْتَل قضاء الله ورسوله ثلاث مرات: فأمر به فقُتِل).

الخطاب الإلهي:

- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: ٤١). والله سبحانه حرر الإنسان من وصاية الأنبياء عليهم في عقائدهم، وأقرت رسالة الإسلام حقوق الإنسان المطلقة في

اختيار ما يشاؤون، ليعبدوا ربهم أو الكفر به، فالله وحده كفيل بحسابهم يوم الحساب كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ (الرعد: ٤٠).

فالله وحده اختص بمحاسبة عباده: قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨).

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ (الغاشية: ٢٥ - ٢٦).

وهاتان الآيتين تؤكدان أن مسؤولية الرسول محمد ﷺ هي إبلاغ الرسالة للناس، والتي حدد معالمها القرآن، ونص على التشريعات الأساسية فيما يتعلق بين الخالق سبحانه وخلقه، وفيما يتعلق بالتعامل الذي يحكم علاقات الناس فيما بينهم.

وقوله تعالى ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ (الكهف: ٢٩).

لقد منح الله الإنسان حريةً مطلقةً كما تؤكده هذه الآية، فحرية الاعتقاد حق من حقوق الإنسان منحها الله سبحانه لخلقه، وليس من حق أي إنسان أن يصادر هذا الحق الإلهي للناس جميعًا، فالله وحده فقط يحكم لهم أو عليهم يوم الحساب.

وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (الحج: ١٧). وبهذه الآية احتفظ الله بحقه في الفصل بين الناس على مختلف أديانهم وعباداتهم، ولا يحق لبشر نبي أو رسول أو عالم أو حاكم أن يقضي على الناس بحكم لا يملكه، إذ حسم الله سبحانه هذا الأمر فيما يتعلق بعقائد الناس المختلفة، فهو صاحب الحق الأوحد في مقاضاة خلقه يوم الحساب.

ملاحظة وتعقيب:

هل هكذا يكون مصير من كرمه الله ومنحه كل الحق في حرية الاعتقاد فتمت مصادرة حريته وزاد على ذلك أن تمت مصادرة حقه المقدس في الحياة التي وهبها الله له؟ أليست تلك الروايات تنبت التطرف والإرهاب حينما تمت الاستهانة بالروح الإنسانية، وتمت بذلك مصادرة حق الله سبحانه في عباده وتشويه سماحة الإسلام ورحمته وعدله؟ ألا يُعْتَبر كل من روى هذه الروايات ومن نقلها ومن كتبها أعداء لله وأعداء لرسوله وأعداء لرسالة الإسلام التي تدعو للحرية والمحبة والسلام بين جميع خلقه الله؟

ألا يُعْتَبر مبدأ التكفير للناس بصفة عامة - سواء كانوا مسلمين أو من أهل الكتاب أو من الوثنيين أو ممن لا دين لهم - قضيةً لم يمنح الله أيًّا من رسله وأنبيائه حق تكفيرهم؟ ولا يمكن لأية فئة أن تفتئت[1] على حق الله في معرفة خلقه، وما يضمرون في قلوبهم وما يعتقدون، فلا يملك إنسان مهما أُوتِيَ من علم ومكانة في المجتمع أن يكفر غيره.

وما وصلنا إليه اليوم من أن يتصدر الإنسان وينصب من نفسه حكمًا وقاضيًا على اعتقاد الناس والحكم عليهم بالقتل أو الموت، فذلك يؤكد نتيجةً خطيرةً بأن الذين ابتدعوا تلك الأحكام وأطلقوا العنان لتشويه الإسلام؛ لم يقرأوا القرآن بإمعان ويتفهموا شريعة الله لخلقه، ولم يدركوا أنهم تجاوزوا الخطوط الحمراء بافترائهم على شرع الله ومصدره الوحيد: القرآن الكريم.

(١) افتأت: افترى.

(١١) مراجع الخطاب الديني الشيعي

إنه الحقد الفارسي من رسالة الإسلام التي أزالت إمبراطوريتهم من الوجود، هذا الحقد الذي وظفه اليهود وقاموا بتوجيهه صوب إنشاء عقيدة التشيع لتنشطر الأمة نصفين ومن ثم تكون البداية لانشطارات عديدة تمزق الجسد الإسلامي تمزيقًا.

وقد لعب الفرس بدماء ضحايا الفتنة من آل بيت رسول الله ﷺ حين اختلقوا حالة المظلومية من تلك الحادثة التي قُتِل فيها الحسين ونفر من أهله في كربلاء ٦١هـ؛ فانطلق خطابهم الديني ليجعل من مأساة كربلاء محورًا يدور في فلكه الخطاب الشيعي.

وبالغوا في تقديس الحسين إلى درجة التأليه، وأن المنتمي للمذهب الشيعي سوف يغفر الله له ذنوبه، ويتوب عليه، ويسكنه مكانًا عاليًا في جنات النعيم، خاصةً إذا زار قبر الحسين، فتلقى الأميون والجهلة بالتسليم تلك الدعوة، وأصبحت هي ملاذهم الوحيد في حياتهم الدنيا وفي الآخرة.

وتلك بعض الأمثلة التي غرروا بها الأميين وتحولت إلى مصادر ومراجع للشيعة:

زيارة الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)

عن جابر الجعفي قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام) للمفضل: كم بينك وبين قبر الحسين (عليه السلام)؟ قال بأبي أنت وأمي يوم وبعض يوم آخر، قال: فتزوره؟ فقال: نعم، قال: فقال: ألا أبشرك؟ ألا أفرحك ببعض ثوابه؟ قلت: بلى جُعِلت فداك، قال: فقال لي: إن الرجل منكم ليأخذ في جهازه ويتهيأ لزيارته فيتباشر به أهل السماء، فإذا خرج من

باب منزله راكبًا أو ماشيًا وكل الله به أربعة آلاف ملك من الملائكة يصلون عليه حتى يوافي الحسين (عليه السلام).

يا مفضل: إذا أتيت قبر الحسين بن على عليه (عليه السلام) فقف بالباب، وقل هذه الكلمات، فإن لك بكل كلمة كفلًا من رحمة الله.

فقلت: ما هي؛ جُعِلت فداك؟

قال: تقول: "السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله، السلام عليك، يا وارث علي وصي الله، السلام عليك يا وارث الحسن الرضي، السلام عليك يا وارث فاطمة بنت رسول الله، السلام عليك أيها الشهيد الصديق، السلام عليك أيها الوصي البار التقي، السلام على الأرواح التي حلت بفنائك وأناخت برحلك، السلام على ملائكة الله المحدقين بك، أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وعبدت الله مخلصًا حتى أتاك اليقين، السلام عليك ورحمة الله وبركاته".

ثم تسعى فلك بكل قدم رفعتها أو وضعتها كثواب المتشحط بدمه في سبيل الله، فإذا سلمت على القبر فالتمسه بيدك وقل السلام عليك يا حجة الله في سمائه وأرضه. ثم تمضي إلى صلاتك، ولك بكل ركعة ركعتها عنده كثواب من حج واعتمر ألف عمرة، وأعتق ألف رقبة، وكأنما وقف في سبيل الله ألف مرة مع نبي مرسل.

فإذا انقلبت من عند قبر الحسين (عليه السلام) ناداك مناد لو سمعت مقالته لأقمت عند قبر الحسين (عليه السلام)، وهو يقول طوبى لك أيها العبد قد غنمت وسلمت، قد غُفِر لك ما سلف، فاستأنف العمل، فإن هو مات في عامه أو في ليلته أو يومه لم يل قبض روحه إلا الله وتقبل الملائكة معه يستغفرون له ويصلون عليه حتى يوافي منزله، وتقول الملائكة

يارب هذا عبدك وافى قبر ابن نبيك وقد وافى منزله فأين نذهب؟ فيناديهم النداء من السماء يا ملائكتي قفوا بباب عبدي فسبحوا وقدسوا واكتبوا ذلك في حسناته إلى يوم يتوفى.

قال: فلا يزالون ببابه إلى يوم يتوفى ويسبحون الله ويقدسونه ويكتبون ذلك في حسناته، وإذا تُوُفِّي شهدوا جنازته وكفنه وغسله والصلاة عليه، ويقولون ربنا وكلتنا بباب عبدك وقد تُوُفِّي فأين نذهب؟ فيناديهم ملائكتي قفوا بقبر عبدي فسبحوا وقدسوا واكتبو ذلك في حسانته إلى يوم القيامة) (انتهى الاقتباس).

والرواية السابقة التي تم تسويقها للناس وكذا الأميين، أولئك الذين لا يحسنون فهم القرآن تفكرًا وتدبرًا فهم يستدرجونهم ويلبسون عليهم الأمر بتلك الروايات الملفقة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، والذين وضعوا الحسين في مكانة تعلو مكانة النبي المختار ﷺ للتغرير بالمؤمنين به كي يتحقق لهم مرادهم في ذلك: أن يتكرس الخطاب الشيعي في الأذهان وفي القلوب، وأن تنسحب قداسة الحسين وتعظيمه لعلماء التشيع حين يذعن لهم الأتباع بالطاعة العمياء، فهم سدنة وحراس هذا الخطاب الديني الذي لا علاقة له بالدين الإسلامي من قريب أو بعيد.

وتسير خلفهم الناس ممن آمنوا بهذا الخلط كقطعان يسوقونهم كما الماشية بعد أن أصبح لأئمة المذهب الشيعي قولهم الفصل الذي لا قول بعده، وصارت لهم قداسة لدى أتباعهم عبر السنين، بل وتحولت طاعتهم لعبادة يُؤْثم من تركها، وبمرور الزمن تعددت حتى الطائفة الواحدة داخل بيت التشيع، وصاروا شيعًا وأحزابًا وجماعات، كما هو مبين أمامنا:

(١) **الإثنا عشرية**/ (٢) **الإسماعيلية**/ (٣) **البهرة**/ (٤) **الزيدية**/ (٥) **البوهيون**/ (٦) **الطريقة الصفوية**/ (٧) **العلويون**/ (٨) **الناوسية**/ (٩) **جند السماء**/ (١٠) **الحسينيون**/ (١١) **الحشاشون**/ (١٢) **الباطنية**.

وما قِيل وما تم نقله عن جابر ابن يزيد بن الحارث الجعفي، وهو من أبرز أعلام الشيعة في القرن الثاني الهجري، فهو الذي أسس للمغالاة في تقديس الحسين ابن علي.

حيث رفعه في المقام لدرجة تعلو مكانة الرسول ﷺ، حينما وصف صلاة كل زائر لقبر الحسين تعادل ثواب كل ركعة وتعادل ثواب من حج أو اعتمر ألف عمرة وأعتق ألف رقبة، كما يعادل وقوفه في سبيل الله ألف مرة، فالحسين هنا تجاوز مقامات ومراتب الأنبياء والمرسلين إلى الدرجة التي يقول فيه الحسين وهو في قبره، يقول وهو يبشر من زاره: طوبى لك أيها العبد قد غنمت وسلمت قد غفر لك ما سلف.

وهكذا استطاع علماء الشيعة أن يضعوا الحسين في مكانة الخالق وقدرته على أن يغفر لزائر قبره، فكيف استطاع هذا العالم الشيعي - جابر الجعفي - وغيره من مرجعياتهم أن يسوغوا لأنفسهم ارتكاب جريمة في حق الله وحق رسوله بأن يضعوا الحسين أعلى من منزلة الرسول ﷺ، الذي قال له الله في كتابه الكريم: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ١١٠)؟

فإذا كان القرآن يؤكد فيه الرسول أنه بشر، فكيف يمكن أن يتصور أي عاقل أن يكون حفيد الرسول الحسين أرفع منزلةً من جده عليه الصلاة والسلام؟ وتكون لديه القدرة على أن يغفر الذنوب عن المذنبين وصلاتهم عند قبره تعادل ألف عمرة؟ بينما الرسول ﷺ يقول له الله في كتابه الكريم: ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأحقاف: ٩).

من هنا تعين علينا الوقوف على الآتي بيانه:

أولًا: إذا كان الرسول لا يعلم ماذا سيكون موقف الله معه يوم الحساب، وموقف عباد الله أمام الواحد القهار، وإذا كان الرسول لا يعلم ماذا أعد الله له من جزاء ومنزلة،

فكيف يستطيع الحسين أن يبشر زائر قبره بأن الله قد غفر له ذنوبه؟ فهل يعلم الغيب إذًا وهو ميت في قبره؟ والحسين بريء من هؤلاء الذين تاجروا باسمه، وهو الذي يعلم علم اليقين أنه لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وهو (رضى الله عنه) ينتظر وقوفه أمام الله يوم الحساب.

ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ**﴾ (الأعراف: ١٩٤ - ١٩٥).

فالآية الكريمة توضح بأن الميت سواء كان الرسول ﷺ أو أحفاده جميعًا بشر لا يملكون من أمرهم شيئًا، ومردهم إلى الله يوم الحساب، فكيف يستطيع الميت في قبره أن يرى ويسمع؟ والله سبحانه يتحدى البشر بتلك الآية بأن الميت لا يستطيع أن ينفع الناس أو يضرهم؟ وإذا كان الحسين في حياته لم يستطع أن يكف الأذى عن نفسه وعن أسرته، فكيف يستطيع أن يعين الناس وهو في قبره؟

أين ذهبت العقول؟ وكيف غاب الإيمان؟ وكيف اخْتُطِفت ألباب الناس؟

لقد استطاعت مرجعيات الشيعة أن يضللوا الناس، ويمنونهم ويخدعونهم باتخاذ أبسط السبل لتحقيق رضى الله عنهم وليغفر لهم ذنوبهم، فما عليهم إلا زيارة قبر الحسين، لنرى التسابق المحموم من الذين ابتعدوا عن الخطاب الإلهي، وما يعلمه للناس من هداية وحماية من أن يتم استغلالهم أو أن يخطف بصيرتهم مرجعيات باطلة.

من هنا كان التوضيح التام دومًا ما يأتي في كثير من آيات الذكر الحكيم، توضيح وتنبيه للناس بأن لا ينخدعوا بالقول أو بالوعود أو الأمنيات الكاذبة ممن لا يملك تحقيقها، كي يحذر المسلمون من هؤلاء الذين فرضوا أنفسهم بالباطل على الناس بدعوى أنهم

يحملون العلوم الدينية وأسرارها وهم وحدهم من يملك الرؤية والفهم الصحيح وعلى الجميع اتباعهم وفق ما يريدون، فهم المعنيون بإرشاد الناس لطريق رضى الله ومغفرته.

لذا أصبح الأمر اليوم يتطلب مواجهةً شاملةً مع كل الأفكار التي تسلب العقول، وتضلل الناس، وتبعدهم عن دينهم بالغواية والتغرير بهم من خلال روايات كاذبة لا تتفق مع القرآن ولا يقبلها العقل، ولقد فضحت آيات الله الكريمة كل السلوكيات الدينية الشاذة بالمنطق ومعايشة الواقع، مؤكدةً أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لم يُخْلَق بعد إنسان يملك القدرة والقدسية أكثر من الرسول الذي لم يدع أنه قادر على منحهم المغفرة وقبول التوبة وشفاءهم من الأمراض.

بل أكدت الآية الكريمة كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الأنعام: ٥٠).

وكما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأحقاف: ٩).

والسؤال يطرح نفسه وبإلحاح إذًا. **لماذا الحسين وليس الحسن وكلاهما شقيقان من أم وأب واحد؟** ويكمن السبب في أن الحسين بن علي تزوج ابنة ملك المجوس (يزدجرد - ملك إيران) «شهربانو» بعدما جاءت مع الأسرى الإيرانيين.

فلما دبر اليهود لعثمان بن عفان وتترسوا بعلي بن أبي طالب بدون إذن منه ومعرفة، فادعوا الولاية والخلافة لعلي وأولاده ليؤسسوا لشرخ في الدين الواحد. فرأوا أن الدم الذي يجري في عروق علي بن الحسين، الملقب بزين العابدين وفي أولاده دم إيراني من قبل أمه «شهربانو ابنة يزدجرد» ملك إيران من سلالة الساسانيين المقدسين عندهم.

فلأجل هذا دخل أكثر أهل فارس في الشيعية لما يجدون فيها التسلية بالسباب على الصحابة وعمر وعثمان فاتحي إيران، ومطفئي نار المجوسية فيها، ومن هناك اتفقوا مع اليهودية الماكرة، ولأجل هذا اتحدوا معهم وسلكوا مسلكهم، ونهجوا نهجهم وساهم في ذلك قرابة الحسين بن علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ ، فهو حفيده من فاطمة بنت محمد (صلوات ربي وسلامه عليه).

ومن خلال تلك القرابة للرسول سيكون مدخل الفرس لغرس بذور الفتنة والشقاق، وسيكون من تلك القرابة أيضًا السند والحجة لدعم خطابهم الديني في اتجاه قد خططوا له سلفًا مع اليهود، وسرت الأمور كما توقعوا لها. أن وقع الصدام بين فريقين: فريق تشيع لآل البيت، وآخر تمترس على حق الحكم والولاية، فكانت معركة كربلاء (٦١هـ/ ٦٨٠م) وما حدث فيها للحسين وأهله من قتل واستباحة دمائهم على يد رجال يزيد بن معاوية حاكم الشام.

ووقفت الحمية الفارسية وراء تلك الأحداث تحقيقًا لانتقامهم وحقدهم الأسود على العرب، فأنشأوا الروايات والخرافات فيما يتعلق بتقديس أهل البيت، وهذا ليس حبًّا في محمد وآله، وإنما وجدوه مصطلحًا يستظلون به ويتمترسون خلفه لتنفيذ مآربهم في استحداث دين جديد لا علاقه له برسالة الإسلام وكتاب الله الحكيم.

كل ذلك لمحاولة إحياء إمبراطورية الفرس المجوسية مرةً أخرى، ولاستقطاب الجهال والأميين من العرب في السير خلف ركابهم، وفي السير خلف خطاهم الشريرة تضرب الفرقة صفوف العرب المسلمين، وتجعلهم في اقتتال دائم وتناحر، ومن ثم يكون سهلًا عليهم تسخيرهم في خدمة المشروع الفارسي، ذاك المشروع الذي يسير في عالمنا اليوم متوازيًا مع المشروع الصهيوني للسيطرة على ثروات العرب، والانتقام منهم نتيجةً للهزائم التي ألمت بهم قبل ١٤ قرنًا من الزمان من قبل العرب.

ويظل الفرس مصرين لم يستسلموا للهزائم، بل استمروا في نشر الإشاعات وفبركة الروايات لتغييب العقل العربي، وإقصاء الخطاب الإلهي القرآن الكريم لكي يتشتت شمل العرب في ظلمات حالكة، فيها يضربون أعناق بعضهم بعضًا لعل ذلك يشفي غليل اليهود والفرس، من هنا كان السبب في استحداث الفرس واليهود للروايات الإسرائيلية، وما فيها من خرافات ودجل وسلب للعقول.

وما حدث في المذهب الشيعي هو نفس ما حدث في عقيدة اليهود، فهناك تلاق يصل إلى حد التطابق بين عقيدة الشيعة وعقيدة اليهود، فلنرى معًا هذا التلاقي بينهما.

(١٢) القواسم المشتركة بين الشيعة واليهود

حين يكون المصدر واحدًا يأتي التشابه في الفروع، فاليهود كانوا وراء انشطار المسلمين في أول الأمر وإقامة حجر الأساس للمذهب الشيعي، فمن الطبيعي أن نرى في عقيدة تلك الطائفة ما هو مأخوذ عن اليهود في فكر تلك الطائفة التي تلاقى فيها الحقد الفارسي المجوسي مع المكر والدهاء اليهودي.

ولا عجب أن يحدث التشابه الكبير بين الشيعة واليهود، ذلك أن محنة الشيعة هي نفس محنة اليهود. إذ قالت اليهود: لا يكون الملك إلا في آل داود، وقالت الشيعة: لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب، وقالت اليهود لا يكون الجهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي مناد من السماء، وقالت الشيعة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل سبب من السماء.

واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الشيعة، واليهود حرفوا التوراة وكذلك الشيعة حرفت القرآن وقالوا أن هناك سورة الحفد وسورة الولاية يحتفظون بهما في مصحفهم داخل سرداب الإمام العسكري، واليهود تبغض جبريل عليه السلام وتقول: هو عدونا من الملائكة، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ٩٧).

وكذلك الشيعة يقولون: أخطأ جبريل حين أنزل الوحي على محمد وترك علي بن أبي طالب.

وهذا بيان الجوانب التي تشابهت فيها عقيدة الشيعة مع عقيدة اليهود:

(الجانب الأول): الوصي عند اليهود والشيعة

اتفاق اليهود والشيعة على وجوب تنصيب وصي، ذلك أن إطلاق لقب (وصي) على من يخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في تصريف شؤون المسلمين لم يُعْرَف عند المسلمين، والذي أحدثه وابتدعه هو (ابن سبأ اليهودي) ومن غرر بهم من عوام الناس، عندما أحدث القول بالوصية، وزعم أن عليا وصي رسول الله ﷺ . وكان ذلك في زمن عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وبهذا يتضح أن أصل لقب (وصي) يهودي صرف؛ انتقل إلى الشيعة عن طريق ابن سبأ:

- عند اليهود:

جاء في سفر العدد: (فكلم الرب موسى قائلًا: ليوكل الرب إله أرواح جميع البشر رجلًا على الجماعة يخرج أمامهم، ويدخل أمامهم ويخرجهم ويدخلهم لكيلا تكون جماعة الرب كالغنم التي لا راعي لها، فقال الرب لموسى: خذ يوشع بن نون رجلًا فيه روح، وضع يدك عليه، وأوقفه قدام العازار الكاهن وقدام كل الجماعة، وأوصه أمام أعينهم. ففعل موسى كما أمره الرب، أخذ يوشع وأوقفه قدام العازار الكاهن وقدام كل الجماعة، ووضع يده عليه وأوصاه كما تكلم الرب عن يد موسى).

- عند الشيعة:

فقد أورد الصفار في كتابه (بصائر الدرجات) بابًا كاملًا في هذا المعنى، عنون له بقوله (باب إن الأرض لا تبقى بغير إمام ولو بقيت لساخت) ومما أُورِد تحته من الروايات ما رواه عن أبي جعفر قال: (لو أن الإمام رُفِع من الأرض ساعةً لساخت بأهلها كما يموج البحر بأهله).

(الجانب الثاني): الله يختار الوصي

اتفق اليهود والشيعة على أن الله تعالى هو الذي يتولى تعيين الوصي وليس للنبي اختيار وصيه من بعده.

- عند اليهود:

في سفر العدد: (قال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكي تموت ادع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه، فانطلق موسى ويشوع ووقفا في الخيمة، فتراءى الرب في الخيمة في عمود السحاب، ووقف عمود السحاب على باب الخيمة: وقال الرب لموسى: ها أنت ترقد مع آبائك. وأوص يشوع ابن نون، وأنا أكون معك).

- عند الشيعة:

جاء في كتاب بصائر الدرجات ما نصه: (عن أبي عبد الله الصادق قال ليلة أُسْرِي بالنبي ﷺ وانتهى إلى حيث أراد الله تبارك وتعالى ناجاه ربه (جل جلاله)، فلما أن هبط النبي محمد ﷺ إلى السماء الرابعة ناداه ربه: يا محمد. فقال: لبيك ربي، قال: من اخترت من أمتك يكون من بعدك لك خليفةً؟ قال: اخترلي ذلك فتكون أنت المختارلي، فقال: اخترت لك خيرتك عليًّا بن أبي طالب).

(الجانب الثالث): حصر اليهود والشيعة لأسباطهم وأئمتهم

يستدل الشيعة الإمامية لحصرهم الأئمة في اثني عشر إماًما بمشابهتهم لعدد أسباط بني إسرائيل يقول الأربلي: إن الله عزوجل قال في كتابه: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا**﴾ (المائدة: ١٢). فجعل عدة القائمين بذلك الأمر اثني عشر، فتكون عدة الأئمة القائمين بهذا كذلك.

(الجانب الرابع): حصر اليهود الملك في آل داود

وحصر الشيعة الإمامة في ولد الحسين

- عند اليهود:

يحصر اليهود الملك في آل داود، ويرون أنه لا يجوز أن يخرج الملك منهم إلى غيرهم إلى يوم القيامة.

جاء في سفر أرميا: (لأنه هكذا قال الرب لا ينقطع لداود إنسان يجلس على عرش بيت إسرائيل).

وفي سفر الملوك الأول: (ويكون لداود ونسله وبيته وكرسيه سلام إلى الأبد من عند الرب).

وفي الملوك الأول أيضًا: (والملك سليمان يبارك وكرسي داود يكون ثابتًا أمام الرب إلى الأبد).

- عند الشيعة:

يحصر الشيعة الإمامة في ولد الحسين ويرون أنها لا تخرج عنهم إلى يوم القيامة.

وقد نقل إجماع علماء الشيعة على ذلك شيخهم المفيد في كتابه (مسار الشيعة) فقال: "اتفقت الإمامية على أن الإمامة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بني هاشم خاصة، ثم في علي والحسن والحسين، ومن بعد في ولد الحسين دون الحسن عليه السلام إلى آخر العالم".

(الجانب الخامس): الأنبياء عند اليهود يعلمون الغيب كما الأئمة عند الشيعة يعلمونه

غلت اليهود في بعض أنبيائهم عندما زعموا أنهم يعلمون بعض الأمور الغيبية كزعمهم أن إيليا كان يعلم متى ينزل المطر.

- غلو اليهود:

جاء في سفر الملوك الأول: (وقال إيليا لأخاب اصعد كل واشرب لأنه حس دوي مطر، فصعد أخاب ليأكل ويشرب، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وخر إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه، وقال لغلامه اصعد تطلع نحو البحر، فصعد وتطلع وقال ليس شيء.

وقال: ارجع سبع مرات وفي المرة السابعة.

قال هوذا: غيمة صغيرة قدر كف إنسان صاعدة من البحر، فقال: اصعد قل لأخاب اشدد وانزل لئلا يمنعن المطر وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم).

وهذا النص يفيد أن إيليا علم نزول المطر قبل أن تظهر علاماته بل إن السماء كانت صافيةً، كما أخبر بذلك خادمه الذي ذهب ليتطلع المطر، ومعلوم أن نزول المطر من الأمور الغيبية التي اختص الله بعلمها، ودعوى اليهود هذه في إيليا إنما كانت لاعتقادهم أن أنبياءهم يعلمون بعض الأمور الغيبية.

- غلو الشيعة:

غلت الشيعة في أئمتهم وادعوا أنهم يعلمون الغيب وأنهم لا يخفى عليهم شيء في السموات ولا في الأرض، وأنهم يعلمون ما كان وما سيكون إلى قيام الساعة.

جاء في بحار الأنوار عن سيف التمار قال: كنا مع أبي عبد الله عليه السلام فقال: (ورب الكعبة ورب البنية - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما، لأن موسى والخضر أُعْطَيا علم ما كان ولم يُعْطَيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وراثةً).

(الجانب السادس): خذلان اليهود لأنبيائهم كما خذلان الشيعة لأئمتهم

اليهود تخلفوا عن نصرة موسى ومن تلاه من الأنبياء والرسل وقد سجل الله لنا قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤). والشيعة تخلفوا عن نصرة أئمتهم كما خذلوا عليًّا وحسينًا وزيدًا وغيرهم (رضي الله عنهم).

(الجانب السابع) انقطاع الملك و'لإمامة عند اليهود و'لشيعة

انقطاع ملك آل داود من بني إسرائيل والذي زعم اليهود أنه لا ينقطع إلى يوم القيامة منذ زمن بعيد جدًّا.

وكذلك انقطاع إمامة ولد الحسين، بل إنه لا الحسين ولا أبناؤه تولوا إمارة المسلمين في يوم من الأيام.

وهذا مما يدل على كذب اليهود والشيعة وافترائهم على الله تعالى، الذين نسبوا إليه بأنه وعدهم باستمرار الملك والإمامة فيمن زعموا، إذ لو وعد الله بذلك لوفى بوعده، فالله لا يخلف وعده:

قال تعالى: ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم: ٦).

لقد أسس الفرس عقيدةً جديدةً وهي العقيدة الشيعية، تلك التي اعتمدت على (التقية) بل وجعلتها من ركائز الدين الذي ابتدعوه، التقية التي تظهر خلا ما تبطن، فهي تبطن النفاق وتظهر في العلن الإسلام من أجل تحقيق أهدافهم الشريرة.

وهكذا نرى الخطاب الديني الشيعي يتعارض مع الخطاب الديني السني، وكل له فرقه وطوائفه وكل له شعاراته وأعلامه وكل يدعي صاحب الرسالة وكل له طقوس مختلفة ولم يتبعوا إلهًا واحدًا، وإمامًا واحدًا: رسول الله، وكتابًا واحدًا: القرآن الكريم، حيث يقول الله فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٩).

وإن الرسول ﷺ كلفه المولى عزوجل بنقل رسالة الإسلام في كتاب كريم ليبلغه للناس كافة، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال سبحانه أيضًا: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (آل عمران: ٨٥).

(١٣) القتال في سبيل الله

لقد غرر البعض من علماء الأمة بعقول الشباب، وروجوا لهم تشريعات باطلة ليست من الإسلام في شيء. هؤلاء العلماء قد أهدوا لأعداء الأمة مدخلًا هامًّا منه يكون الولوج لضربها في الصميم، حين تنتشر على الساحة تلك الجماعات المتأسلمة الإرهابية، تلك التي يقف وراء ظهورها دعوة باطلة انحرفت بآيات القرآن وحملتها من المقاصد ما لا تحتمل أو تقصده الآيات.

فكان أن وقعت تلك الجماعات المتأسلمة الإرهابية - والتي اتخذت من القتل والترويع وسيلةً لفرض وجودها - في فخ الاستدراج وفق أجندات خفية صهيونية غربية، تعمل بدأب على تفكيك الأمة وتمزيق أوصالها عبر التمويل والتوجيه لتأجيج الاقتتال الداخلي، ليبقى النزيف الدامي متواصلًا لتمكين إسرائيل من تحقيق الحلم الصهيوني التاريخي: من النيل إلى الفرات.

كل هذا حدث جراء إقصاء القرآن الكريم الكتاب الذي حوى بين طياته الخطاب الإلهي. الخطاب الإلهي الذي أتى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. كل الناس من دون تفريق ولا تمييز لقوم أو طائفة.

وهذا الخطاب الإلهي والذي فيه نجاتنا وخلاصنا مما نعاني قد شمل تشريعه كل مناحي الحياة، ولم يكن فيه ما يأمرنا بقتل النفس التي حرم الله، إلا أن يكون دفعًا لعدوان، أو قصاصًا عادلًا، نعم ليس في هذا الخطاب ما يأمرنا بقتل المخالفين لنا في الدين كونهم غير مسلمين. ليس فيه ذلك البتة.

إن كثيرين افتروا على الله كذبًا، وأحلوا ما حرمه في كتابه من قتل الأبرياء، بل إن شططهم وانحرافهم ذهب بهم لأبعد من ذلك حين ادعوا أن قتال الكفار فريضة لا بد

من تأديتها، ومن يقاتلهم فهو يجاهد في سبيل الله، وخلطوا وألبسوا الباطل ثوب الحق، وراحوا يلوون أعنة الآيات القرآنية علها تصب في اتجاه مسعاهم المريض.

لكن القرآن الكريم يأبى أن يكون ألعوبةً في أيدي هؤلاء. يأبى ذلك حين يكون بيانه ساطعًا واضحًا كما سنرى معًا: ما هو الفرق بين كلام الله، والفتاوى المتكئة على روايات باطلة، ادعت زورًا نسبتها للنبي ﷺ حين أرادوها قتلًا ودماءً؛ فساءت صورة الإسلام بفتاوى هؤلاء الأدعياء ممن لم يقفوا موقفًا صحيحًا على مراد الله في خطابه الإلهي بالقرآن الكريم.

حيث إن القرآن الكريم حدد بوضوح وجلاء علاقة المسلمين بالمختلفين عنهم في العقيدة في قوله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الممتحنة: ٧ - ٩).

تلك هي العلاقة التي يريدها الله أن تكون بين المسلمين والمخالفين لهم في العقيدة، يريدها سبحانه وتعالى علاقة مودة وسلام وبر وقسط وعدل وفق ما بينه في كتابه المحكم أمامنا.

أما القتال فإنه طارئ استثنائي؛ يفرضه عدوان الآخرين على المسلمين بإكراههم وفتنتهم في دينهم وإخراجهم من الأوطان والديار بالتهجير والاستعمار والاحتلال.

إن الخطاب الإلهي في القرآن الكريم قد شمل تشريعات عدة من جملتها تشريعه الخاص بالقتال، فعندما أمر القرآن المسلمين بالقتال كان ذلك لمن أخرجهم من ديارهم واعتدى عليهم، وحذر في هذا الأمر ذاته - والذي فيه الدفاع عن النفس - من العدوان خوفًا من أن تجرف الحمية المسلمين، فينهمكون بعد رد العدوان عنهم في الانتقام والبطش. فهو إذا الرفض للعدوان مهما كانت الظروف، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٠).

وهذه الآية الكريمة قد حددت بكل وضوح مقاتلة المعتدين، والذين جاءوا للقتال، وعلى نسقها ووجهتها أتت كل آيات القتال في القرآن الكريم، والتي تحث على القتال بأسبابه، والتي تنظم في بعض المواقف طرق القتال، وكل ذلك يندرج تحت حكم القاعدة الأساسية في الآية المذكورة أعلاه، وفي حالات محددة تكون مقاتلة المعتدين كما يلي:

- **أولًا:** في حالة نقض عهود السلام بين الطرفين.
- **ثانيًا:** في حالة الاعتداء المباشر على المسلمين.
- **ثالثًا:** في حالة التجهيز والإعداد من قبل الأعداء لقتال المسلمين.
- **رابعًا:** الاعتداء والغارات المستمرة على المسلمين، واستباحة أراضيهم ونهب ثرواتهم وسبي نسائهم.

كل تلك الحالات المذكورة تتفق تمامًا مع الآية المذكورة أعلاه، وبالرغم من ذلك وضع الله سبحانه وتعالى قاعدةً أخرى رحمةً بكل الناس، قاعدةً تهدف إلى تقليل الخسائر، وتضميد الجراح بقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (الأنفال: ٦١).

وفي هذا من الإمعان في إبراز الهدف من الأمر بالقتال، إنه للدفاع عن النفس وفقط، ويعقب الأمر التحذير من الاعتداء على من أوقفنا عدوانهم عنا، لتؤسس تلك الآية الكريمة: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٠)؛ لقاعدة قام عليها بنيان الفهم لمراد الله في آيات القتال في كتابه الحكيم كما في:

١) قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾ (الإسراء: ٣٣).

٢) قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ (النساء: ٢٩).

٣) قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة: ٣٢).

إذا كان السابقون وفق قدراتهم المعرفية، قد فاتهم التدقيق والتمحيص في مراد الله، فلم يفرقوا في تشريع الله ومراده، بأنه سبحانه وضع قواعد تشريعية تحكم تصرفات المسلمين على أسس من العدالة، ولعجزهم في استجلاء تلك المقاصد، فإنهم اعتبروا آيات القتال قد نسخت القاعدة الرئيسية التي وُضِعت في حق الدفاع عن النفس، والتي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

وهذه هي الآية التي تُعْتَبر المرجع الوحيد لكل حالات القتال، وما ورد في القرآن الكريم من آيات القتال في عدد من المواقف، وكذا الحالات المختلفة والمحددة بزمانها ومكانها، وللأسف مع كل هذا الوضوح في الآية وفي غيرها مما سنذكره، مع هذا كله لم تعد قاعدة لحكم عام يسير على نهجها المسلمون علمًا بأن الآية المذكورة تضمنت أمر الله بعدم الاعتداء مطلقًا!

وحينما تحدث القرآن عن القتال كفريضة، وهو أيضًا في مقام رد العدوان، قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٦ - ٢١٧).

وكذلك كان الظرف وكانت الأسباب، فتحتمت المقاصد لما استنفر القرآن المسلمين لخوض غمار القتال، فالظرف والسبب اجتمعا في عدوان الآخرين، أو مشركي قريش عندما

استفزوا الرسول ﷺ والمؤمنين فأخرجوهم من الديار، وعندما تآمروا على الرسول ﷺ ليقتلوه كما ذكر لنا القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ (الأنفال: ٣٠)، ويقول كذلك تبارك وتعالى: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء: ٧٦).

وعلى هذا المنوال تأتي جميع الآيات القرآنية التي أذنت أو أمرت أو أوجبت أو حثت على القتال لتحصر الآيات وتقيد مشروعية القتال في الإسلام على رد العدوان: الإيذاء والإخراج من الديار.

قال تعالى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٤).

لم يترك الخطاب الإلهي في القرآن مجالًا لخلط المفاهيم واللبس، بل إن آيات القتال على طول سياقه العام والخاص قد أتت لتفصل وتبين طرق القتال وأساليبه المثلى والتعلم في النزال والمعارك الحربية، وأيضًا كي يتعلم منها المسلمون إدارة القتال وضوابطه الإنسانية والأخلاقية.

فآيات القرآن والتي تحدثت عن القتال لم تكن تعني الأمر بقتل الناس ظلمًا وعدوانًا، بيد أنها تعتبر من قبيل التعليمات القتالية في مواجهة الأعداء في حالة الإعتداء على المسلمين، كما تعد من النصائح التي لا بد من الأخذ بها وقت القتال ليتحقق الردع ورد العدوان.

والله سبحانه رحيم بعباده، يريد لهم الخير والسلامة وتقليل الخسائر بين الطرفين حينما وضع قاعدة السلام في الحرب الدفاعية كقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (الأنفال: ٦١).

فهو سبحانه يعلمنا أنه إذا جنح الأعداء للسلام فيجب علينا أن نقبل السلام رحمةً بالناس وتقليلًا للخسائر لتحقيق الأمن والاستقرار حقنًا للدماء لوضع أسس المصالحة بين المتحاربين.

كما أنه سبحانه أرشدنا لطرق التعامل مع الأسرى: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ (محمد: ٤)؛ إما أن نطلق سراح الأسير إكرامًا وتسامحًا، وإما أن يتم أخذ الفدية في سبيل إطلاقه، فوضع سبحانه في كتابه المحكم قاعدةً للأسرى وكيف يكون التعامل معهم على أرقى القيم الإنسانية بقوله تعالى: ﴿**فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (محمد: ٤).

ومع القرآن في دروس القتال، إذ يعلمنا أخلاق الفرسان حين يحذرنا من الغيلة والغدر في القتال وخيانة العهود، فالمسلمون لا يقاتلون غيلةً، ولا فجأةً، وإنما لا بد لهم من إعلام الآخر كما يقول سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ (الأنفال: ٥٨).

فالله تعالى هنا يرسي قاعدةً أخلاقيةً للشروع في القتال، فبها يقول الله عزوجل للمسلمين إن أردتم أن تقاتلوا فلا تبدءوا بالقتال، ولكن انبذوا إليهم (أعلموهم أو أنذروهم). تلك هي أخلاق القتال في الإسلام، والتي سبقت منذ أربعة عشر قرنًا ما تعارف عليه اليوم من مواثيق قد نادت بذلك.

كما أن عدم الاعتداء - والذي حثنا عليه الله تعالى في قرآنه - ليس مقصودًا به الكف عن العدوان فحسب، بل إن عدم الاعتداء يتضمن الامتناع عن كل الوسائل العدوانية التي من شأنها استفزاز الطرف الآخر أو الإضرار بمصالحه أو التهجم عليه بمختلف الوسائل.

فكل تلك الحالات تؤسس مناخًا للاقتتال وما قد ينشب عن ذلك من حروب دامية، يعقبها أضرار وكوارث وإهدار دماء الأبرياء من الأطفال والكهول والنساء، وما قد ينجم عنه من اشتعال الحرائق التي تلتهم الأخضر واليابس. كل هذا يتعارض مع ما يريده الله لخلقه من حياة آمنة مستقرة يتبادل فيها الناس المنافع، ويعيشون حياةً كريمةً.

من هنا كانت التعليمات القرآنية واضحةً جليةً، وكانت الإرشادات الإلهية ناصعةً في القرآن الكريم أنه إذا قاتل المسلمون دفاعًا عن أنفسهم فإنهم لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون أسيرًا، بل ولا يضيقون عليه في ضروريات حياته، وكذلك لا يقتلون ولا يقاتلون غير المقاتلين، فلا قتال ولا قتل للنساء، والأطفال والمسالمين والرهبان والعباد، والمنصرفين إلى الزراعات والتجارات والصناعات والحرف وشؤون العمران.

بل لقد ذهبت أخلاق الفروسية الإسلامية إلى الرفق بالحيوانات والنبات، فلا يقطعون شجرًا ولا يقتلعون زرعًا، ولا يدمرون البيئة، ولا يذبحون حيوانًا من أجل الحفاظ على الحياة.

فالله سبحانه لا يريد لعباده القتل بسبب الدين وأعطاهم الحق للدفاع فقط، والله يقول لرسوله في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس: ٩٩)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (الغاشية: ٢٢)، وفي قوله تعالى: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ (الإسراء: ١٥).

فالآيات ليست إذًا أوامر للمسلمين بقتل من لا يؤمن بدينهم على الإطلاق، ذلك أن الله لم يأمر المسلمين بفرض عقيدتهم وشريعتهم على أحد، وإنما أمرهم بدعوة الناس بالموعظة الحسنة، والدعوة قاعدتها الأصيلة الحجة والبيان، وأسلوبها قائم على الجدال والمجادلة بالتي هي أحسن كما في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥).

بل إنه سبحانه وتعالى شدد على الرسول في ذلك، ليكون هذا هو منهجه ومنهج المسلمين من بعده. قال تعالى: ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس: ٩٩)، وتلك من أساليب الاستفهام الإنكاري؛ والذي تعني فيه الآية: لا تكره الناس على الدخول في الإسلام.

ولذلك قرر القرآن الكريم القاعدة المحكمة والرصينة لهذا الدين، كما في قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والتي لا تعني فقط "النهي" عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضًا "نفي" أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه. إذ الإكراه يثمر "نفاقًا" وهو أخطر من "الشرك" الصراح و"الكفر" البواح، ولا يمكن أن يثمر "إيمانًا" بحال من الأحوال.

وتأكيدًا لحرية العقيدة قال تعالى: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف: ٢٩)، والتي تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ (المائدة: ٩٩)، ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (الغاشية: ٢١ - ٢٢).

من هنا يتبين لنا بجلاء تام لا تشوبه شائبة، أن مدلول آيات القرآن فيما يخص الحرب والقتال ليس "الإيمان" و"الكفر" ولا "الاتفاق" و"الاختلاف"، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار.

وعن هذا المدلول للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الممتحنة: ٧ - ٩).

من هنا كان الإخراج من الديار، والفتنة في الدين، والاعتداء، كانت تلك هي الأسباب التي أتى الأمر بالقتال في القرآن لأجلها، فهو قتال دفاعي ضد الذين أخرجوا

المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم لتحرير الوطن الذي سلبه المشركون من المسلمين: ﴿**وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**﴾ (البقرة: ١٩٢)؛ ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس بمنطق القتال، وإنما هو بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

وحتى هذا القتال الذي كُتِب على المسلمين وهو كره لهم، والذي هو للدفاع عن النفس، حتى هذا القتال الذي هو الاستثناء والضرورة قد وضع الله له في قرآنه دستورًا أخلاقيًّا تجاوز في سموه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي الآن.

وهؤلاء الذين يقاتلون في سبيل الله دفاعًا عن أوطانهم وعن أعراضهم وأموالهم هم وحدهم الذين اختصهم الله بتكريمهم، ويحتسبهم عنده شهداء كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (آل عمران: ١٧٠).

وقوله تعالى عن المؤمنين المدافعين عن أوطانهم وأعراضهم: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾

(آل عمران: ١٩٥).

هذا عن الجزاء الأوفى للمقاتلين بحق في سبيل الله للمدافعين عن أوطانهم وأعراضهم ضد العدوان الذي يستهدفهم، هؤلاء قد نالوا رضا الله، واستحقوا التكريم منه سبحانه، وأي تكريم قد حازوه حين جعل سبحانه وتعالى حياتهم لا تنقضي بموتهم، فهم أحياء بحق إن كانوا في عليين، أو كانوا فيما تركوه من حياة آمنة تنعم بها الناس، حيث لا يمنح الحياة إلا الأحياء. هم الشهداء الذين تحلق أرواحهم في السماء.

وأما من أمعنوا القتل والترويع باسم الإسلام إفكًا وبهتانًا، وانتهكوا حرمات الآمنين، ولم يرحموا طفلًا ولا كهلًا ولا امرأةً، فهؤلاء أعداء الله في الأرض، وهم أتباع الشيطان، وهم من يعيثون فيها فسادًا، وهؤلاء قد أطلق الله عليهم في قرآنه: أنهم من يحاربون الله ورسوله، وقد أمرنا بإنزال أشد العقاب فيهم، والضرب على أيديهم بيد من حديد، فكان جزاؤهم في الدنيا قصاصًا هو - حد الحرابة - وفي الآخرة عذاب عظيم جزاءً بما اقترفت أيديهم من سفك للدماء، ونهب، وحرق.

وفيهم قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (المائدة: ٣٣).

والآن يشهد العالم أعمالًا إجراميَّة إرهابيةً تقوم بها جماعات تنتسب للإسلام زورًا، وتلقى صمتًا مريبًا من أماكن يُفْتَرض فيها أنها مرجعيات إسلامية، وينبغي أن يكون لها موقف صريح من هذه الدماء التي تُسَال باسم الإسلام غير الشجب والإدانة والتنديد اللفظي.

إن هذه المرجعيات التي تهيمن على قطاع عريض من التعليم الديني في عالمنا العربي هي من تقف خلف هذا الداء بطريق غير مباشر، فما كان لهذه الجماعات الإرهابية أن تظهر على الساحة لولا وجود تصور معين وقراءة معينة للإسلام، من هنا يكمن أصل الداء، جماعات تحمل عقيدةً تتناقض مع رسالة الإسلام، في باطنها أهداف سياسية وظفتها أجهزة المخابرات الاستعمارية والتي تسعى لإقصاء الخطاب الإلهي: القرآن الكريم.

حيث تقوم بتنفيذ أغراضها الدنيئة تحت شعارات إسلامية، فتدور عجلة الأحداث حين تغطيها شاشات الإعلام على النحو الذي نراه في كل يوم من سفك للدماء وقتل للأطفال والنساء، لترتسم صورة مخيفة وإجرامية في عقل المشاهد، حين تستنفر مشاعر الكراهية والفزع من هذا الدين الذي لا يرعى حقوق الإنسان ولا كرامته.

وهكذا يتحقق هدف أعداء رسالة الإسلام بما تقدمه تلك الجماعات الضالة من خدمة جليلة في تشويه رسالة الإسلام ورسول الإسلام. وقد تم استغلال الروايات المنسوبة لأصحاب الرسول وما تحويه من عقائد وآراء تجعلها حاضنةً للجماعات الإرهابية، وما يحملونه من ضلالات وما فيها من حقد وكراهية وإجرام ضد كل من لا يتبع فكرهم وعقيدتهم، فوجدت فيها أجهزة مخابرات الدول التي تستهدفنا ضالتها، وأمكنهم تسخيرها في خدمة أهدافهم ضد رسالة الإسلام.

لذا؛ علينا وبأقصى سرعة مراجعة المقررات الدينية، وتصويب وجهتها على أسس تنطلق من روح الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، لا أن نعتمد على روايات صدرت تصورًا للإسلام غير صورته الحقيقية.

لقد تحتم علينا - نحن مثقفي العالم العربي الإسلامي - أن لا نبقى مكتوفي الأيدي، بل أن نتحمل مسؤولياتنا وأن نكون فاعلين في مناهضتنا لكل ما من شأنه حرف هذه الأمة عن وجهتها الصحيحة، في السير خلف كتاب الله الواضح البين، فهو المرجع الذي لا مرجع بعده.

وبرجوعنا لهذا الكتاب المحكم - القرآن الكريم - سيكون القضاء المبرم على تلك الجماعات الضالة الشاردة، ومن يقف خلفها بالصمت أو التأييد الخفي والمباركة ...

بالعودة لهذا الكتاب وفق معطيات العصر سيكون هو الخلاص والنجاة؛ ففيه من الحث والدعوة والمناداة بمعايير العدل والإنصاف والانسجام مع الإنسانية بتنوعها وتعددها في هذا الكتاب الكريم الوثيقة المثلى لإقرار المواطنة والمساواة وحرية الضمير ودولة القانون وحقوق الإنسان.

إن الرد على هذه الحرب التي تشنها جماعات إرهابية اليوم لا يتمثل في القول بأن الإسلام براء منها، لأن هذه الأعمال الإرهابية تتم باسم قراءة معينة للإسلام. بل لا بد من الاعتراف بتاريخية مجموعة من النصوص التي يتضمنها موروثنا الديني، ولا بد من التأكيد

على عدم إمكان تطبيقها اليوم فضلًا عن انعدام صحتها ومصداقيتها وخاصةً التي تتخذ من خطاب الكراهية والتكفير منهجًا لقتل الأبرياء.

إننا ندعو إلى البدء في عملية إصلاح حقيقي للمنهج الديني، ليتفق مع رسالة الإسلام وما جاء بها القرآن الكريم من عبادات وقيم وفضائل وسلوك في كل البلدان العربية وبالأخص منها في مصر، الأمر يتطلب تطويرًا لمناهج التعليم في مجالات عدة.

(١٤) الجهاد في سبيل الله

إن حصر مفهوم (الجهاد) في القتال لهو الخطأ بعينه في فهم الخطاب الإلهي للإنسانية، وقد حاول كثيرون جعل الجهاد مرادفًا للقتل، بل وزجوا آيات القرآن الخاصة بالجهاد في أتون التحريض على القتل، وتلك كانت طامتنا الكبرى لما اختزلوا مفهوم الجهاد في سبيل الله في خانة ضيقة لا تستوعب اتساع ميادين الجهاد العديدة والمتنوعة.

وقد أمرنا الله بالجهاد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: ٧٨)، وجعله فريضةً على عباده قدر استطاعتهم له، وقدر طاقتهم به. والجهاد في الله هنا ليس مقصودًا به حصره في القتال. بل هو جهاد في الوصول إلى مراد الله، وحكمته في كل نواحي الخير والصلاح للبشرية، فأمره سبحانه وتعالى للعباد أن يجاهدوا فيه كما هو أمره لهم أن يتقوه حق تقاته.

ولنعلم جيدًا أن للجهاد في الإسلام من المغزى العميق، والذي يدفع في اتجاه عمارة الأرض وصلاح الخلق، وذاك هو مراد الله في خلق الإنسان، من هنا كان للجهاد في الخطاب الإلهي مفهومٌ وضوابطُ وأخلاقياتٌ ساميةٌ لا عهد للبشرية بمثلها. فالجهاد في اللغة: بذل الجهد والوسع والطاقة، من الجهد بمعنى الوسع، أو من الجهد بمعنى المشقة، وكلا المعنيين في الجهاد.

والجهاد في اصطلاح الخطاب الإلهي قد أتى في القصد القرآني على المعنى الأعم والأشمل من القتال، فميادين الجهاد - كما أشار القرآن - تشمل الحياة كلها بسائر مجالاتها، وليس فقط في ميادين القتال.

بل إن أكثر ما أتى في القرآن من آيات تحث على الجهاد، إنما وردت بقصد بذل الجهد والوسع في نشر دعوة الله للناس، وتبليغ أمر السماء لبني الإنسان، والدفاع عن صحيح الفهم لمراد كلام الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالقتال والإكراه، وتلك هي أهم ميادين الجهاد وهي عديدة ومتنوعة، وتشمل عوالم الأفكار والحوار وشتى مناحي العلوم والمعارف:

- قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥)، وهنا الجهاد بالدعوة والحكمة والموعظة والجدال الحسن.
- وقال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**﴾ (المؤمنون: ٩٦)، وهنا الجهاد بالدفع بالقول الحسن.
- وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصلت: ٣٤)، وهذه الآية تستدعي مجاهدة النفس بقوة الإيمان وتطويعها لتستقبل السيئة بالحسنة، ويتحول لديها رد الفعل الغاضب إلى رد حليم، يحمي الإنسان مما يترتب على عدم السيطرة على النفس من مضاعفات لا يحمد عقباها.
- وقال تعالى: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ (الفرقان: ٥٢)، وهنا قوله: ﴿**وَجَاهِدْهُمْ بِهِ**﴾ أي القرآن فالجهاد هنا بتبليغ أقوى الحجج والبراهين، وما من شك في أن أعظم حجة وبيان هو هذا القرآن، إنه حجة الله على خلقه.
- وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ (التوبة: ٧٣)، وهنا ليس المراد بجهاد المنافقين القتال، لأن المنافقين يظهرون الإسلام ويتخذونه جنة، والنبي ﷺ لم يقاتلهم بل عاملهم بظواهرهم، ولكن جهاد المنافقين يكون بكشف أسرارهم ودواخلهم وأهدافهم الخبيثة، وتحذير المجتمع منهم.

- وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وهنا يأتي القصد في ناحية أخرى من الجهاد: إنه جهاد النفس، فقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا**﴾ أي جاهدوا في ذات الله أنفسهم وشهواتهم وأهواءهم، وجاهدوا العراقيل والعوائق، وجاهدوا الشياطين، وجاهدوا المعتدين من الكفار المحاربين.

فالمقصود: الجهاد في معترك الحياة كلها، وفي حلبة الصراع الشامل. وهذا المقام ينقلنا إلى جهاد النفس حين نغالبها، ونحد من غلوائها، خاصةً في جهادها ضد الشهوات.

والشهوات مدخل للشيطان كبير، ولهذا قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ (فاطر: ٦)، والشهوات كثيرة وجاذبة.

قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (آل عمران: ١٤)؛ فالشهوات سواء في المأكولات، في المشروبات، في النساء، في زينة الأموال، زينة المراكب، متاع الدنيا بكل أنواعها، لا شك أن للشيطان فيها على النفس مدخلٌ عظيمٌ، ومن أعظم ما يجاهد به الإنسان نفسه هو جهاد الشهوات.

والنفس البشرية جُبِلت بطبيعتها على أن تكره مشقة الطاعة، وإن كانت الطاعة يعقبها راحة نفسية دائمة. وتركن النفس إلى لذة الراحة، وإن كانت تعقبها حسرة وندامة.

وكذا تكره النفس الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، وتكره القيام بالإصلاح بين الناس، وهكذا ما من طاعة إلا وللنفس منها موقف الممانع المعارض، فإن أنت أطعتها أهلكتك وخسرتها، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ (الزمر: ١٥).

وإن أنت ظفرت بنفسك، وقهرتها حتى صارت طيعةً مطيعةً لربها كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات: ٤١ - ٤٢).

الجهاد في زمن السلم

إن تكاليف العبادات بالبعد عن المحرمات تحتاج إلى مجاهدة الرغبات الغرائزية وما تحمله من نوازع مختلفة، حيث تميل النفس كثيرًا للمعصية والشر والخداع والظلم، والخيانة وعدم الوفاء بالعهود واستباحة حقوق الناس، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والغيبة والنميمة ونشر الإشاعات ابتغاء الفتنة، كل تلك الصفات المكروهة تتحكم في غريزة النفس البشرية، وجهادها يتطلب عزيمة إيمان، وصبر، وقبل كل ذلك تقوى الله.

حيث إن مواجهة النفس وكبح جماحها هو صراع بين الحق والباطل يكاد يكون أشد قوةً من معارك القتال، فالإنسان يحارب عدوًّا بداخله يساعده في التغرير به شيطان توعد الإنسان أمام الله عند خلق آدم لما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٢).

وقد قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧)، وقال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٥٤).

إن غاية الجهاد في الخطاب الإلهي تكمن في بذل الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم، وذاك هو العنوان الأبرز للجهاد. فحين نستنهض الهمم، ونشد العزم في عمران الأرض نهوضًا بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان، فهذا هو عين الجهاد وذروته، ذلك أن مهمة الإنسان الأساسية في هذه الحياة هي عمارة الأرض، واستثمار الخيرات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)؛ فالإنسان مخلوق من تراب الأرض، وطلب منه وأمره بعمارة الأرض كما في قوله ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي أن "تعمروها".

فالله سبحانه خلق هذا الكون، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، ثم فوض إلى الإنسان أن يستغل هذه الثروات والإمكانات لعمارة الأرض، فمن هنا يكون الجهاد فرضًا علينا سعيًا في مناكبها.

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات: ٤٨)؛ أي بسطناها ومهدناها بين أيديكم ليسهل عليكم العمل فيها، والانتفاع بثمراتها وخيراتها، وفي سياق آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٣٤ - ٣٥).

فالله تعالى أجرى العيون والينابيع في الأرض، لتسقي الزرع حيث لا يكون ذلك إلا بالجهد والمشقة في الحرث والسقي والزرع والغرس، ثم يكون شكر هذه النعمة بجولة أخرى من مجاهدة النفس في الإنفاق مما يعز على الإنسان فعله: إنه الإنفاق مما صار في يديه بعد عناء وتعب، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولي الأرحام هو جهاد أيضًا، فنجد في قوله تعالى ما يدلل بوضوح على الجهاد الذي يمارسه بعض الأهل في منع أبنائهم من الدخول في دين الله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا

﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان: ١٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: ٣١).

وهذه الآيات وغيرها كلها تؤكد أن كلمة الجهاد كما وردت في القرآن الكريم، قد حملت في معناها ما يتسع معها المقاصد لتشمل بذل الجهد والطاقة، وتحمل المشقة في سبيل تحقيق أوامر الله سبحانه وتعالى.

وهذا الجهاد المتسع الأغراض يبدأ من اليوم الأول لوعي الإنسان بضرورات الحياة الكريمة، وما تتطلبها من أشكال مختلفة في بذل المجهود. فالرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد - الطبيعة - هو جهاد؛ والكلمة الصادقة وخشية الله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه هي جهاد ...

ولهذا كله كان الجهاد الإسلامي فريضةً لازمةً على كل من استطاع له من المكلفين وفق قدراتهم، وفي أي ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه بسائر ميادين العبادات والمعاملات.

الجهاد في زمن الشدائد

وهي الدعوة لصد حملات العدوان والدفاع عن الأرض والعرض، فالجهاد هنا إنما كان من أجل أن تكون الحياة، وحتى الجهاد في سبيل الله في خانة الدفاع، كان أيضًا عنوانه من أجل أن تبقى الحياة، ذلك أن الجهاد في الخطاب الإلهي إنما كان وجوبه لحفظ توازن البقاء لأنه دفاع عن الحرمات، وردع للمعتدين، فلو تُرِكت الحرمات نهبةً لكل منتهب، وتُرِك المعتدون يفعلون ما يشاءون ما استقامت الحياة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

والجهاد بهذه المثابة حياة للمسلمين ولغيرهم من المستضعفين والمظلومين، من أهل الملل الأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ

﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠)، فالصوامع: معابد النصارى، والبيع: معابد اليهود، والصلوات: معابد المجوس أو الصابئة، والمساجد: معابد المسلمين، وهي التي يُذْكَر اسم الله فيها كثيرًا.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

فالجهاد هنا مع ما فيه من سفك لبعض الدماء في هذه الحالات، إلا أنه حياة كالقصاص مع أنه سفك لدم الجاني، لكنه حياة للناس لأنه يردع الجناة؛ فتُحْفَظ بذلك دماء الناس من أن تُسْفَك. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩).

من هنا كان الجهاد في إعداد ما لزم في ذلك من:

١) المساهمة بالمال في الإعداد والتجهيز لقوات الدفاع.

٢) دعوة المتطوعين للالتحاق بالتدريب في مرحلة الإعداد للمواجهة.

وحين نفعل يكون ذلك تنفيذًا لأوامر الله في مواجهة الأعداء، أولئك الذين يريدون شرًّا، ومنعهم من الاستيلاء على ثروات الناس واستباحة حرماتهم. وقد وضع الله في تشريعه ضوابط لهذا القتال وفق ما بينته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

وقد أوضحنا ذلك تفصيلًا فيما سبق، وهي حالة الدفاع عن النفس والأرض والعرض والمال، وفي هذه الحالة التي توجب فيها القتال كان الجهاد فيها ممهورًا بنداء من الله، فيه تحذير لمن كتب عليهم القتال، أن لا يتهاونوا في الأمر كي لا يطمع في ضعفهم المعتدون،

كما في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٢١٦).

وفي الختام نصل إلى أن الجهاد بمعناه العام يشمل حياة الفرد والمجتمع كلها، بجوانبها المختلفة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهنا يكون الجهاد بنشر العلم والتعلم والدعوة إلى الله عن بصيرة، ويشمل الجهاد أيضًا النفس وشهواتها والهوى، ووساوس الشياطين، وهنا يكون الجهاد بنشر الفضائل والأخلاق الحميدة وموعظة الناس للتي هي أقوم وأحسن.

(١٥) الخطاب الإلهي حوته آيات القرآن

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).

لم يتنزل هذا الكتاب - القرآن الكريم - ليكون خاصًّا بقوم دون غيرهم، بل كان نزوله على النبي العربي وقومه لا ليخص العرب وحدهم، بل ليكون العرب هم حملة مشاعل هدايته، ومن خلالهم وعبر لغتهم يكون بلاغ هذا الكتاب للناس جميعًا.

من هنا حمل القرآن بين طياته جميع المبادئ الإنسانية التي من شأنها الارتقاء بحياة الناس، وحمل كذلك بين جنباتها قواعد الأخلاق السامية التي تدعو للسلام والرحمة والتعاون على الخير والإعمار، فالقرآن قد جسد في صورة جلية الخطاب الإلهي لبني البشر، لذا كانت آياته على طول سياقه تحث وتدعو لاتباع هديه، والنور الذي جاء به. قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٥).

ومن المؤسف والمحزن معًا أن نختزل تلك النعمة الكبرى - القرآن الكريم - في تلاوة نرددها من دون تدبر ولا عمل بما ورد فيه من وصايا وتعليمات. ولن تنجلي للأمة قيمة وفائدة القرآن الكريم إلا إذا جعلناه دستورًا لنا في الحياة؛ نستمد منه التشريعات الضابطة لمجتمعاتنا.

ولو فعلنا ذلك لكان لأمتنا السبق والصدارة في كل شيء. وقد أراد الله لهذا الكتاب بقاء أبديًّا، حين تكفل هو سبحانه وضمن لنا حفظه من التحريف والتبديل. فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

لكن المتربصين والكارهين للخير لم يتركوا أمر هداية الناس يسيرًا سهلًا، فوضعوا الحواجز والجب التي حالت دون استمساك الناس بنواصي القرآن حين طغت الروايات التي عظمت من أمر الشعائر والطقوس ورفعتها في مكان القداسة على حساب المبادئ والأخلاق والقيم السامية النبيلة التي دعا إليها القرآن، تأتي الروايات عبر المتربصين لتشوش على الناس بيان الدين ومقاصده العليا باختزالها الأمر في شعائر وطقوس وفقط.

ولو تدبرنا القرآن وأعملنا العقل لاستبان لنا مراد الله في آياته، وهو سبحانه قد دعانا للتدبر كما في قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (ص: ٢٩).

ومن عظمة هذا الكتاب - القرآن الكريم - أن الله تعالى قد وضع فيه كل ما يحتاجه المرء إذا ما أراد الإنسان طريق الخير والصلاح.

- قال تعالى: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام: ٣٨).

- قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (النحل: ٨٩).

ومن نعمائه سبحانه وتعالى على عباده أن جعل هذا الكتاب يسيرًا سهلًا على من أطلق عزمه في تدبر آياته، وضرب الله لنا فيه من الأمثال التي ترشدنا لمكامن الفهم.

- قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (الزمر: ٢٧).

ولم يجعل سبحانه وتعالى كتابه لقوم دون غيرهم، بل هو للناس جميعًا.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سبأ: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ويأتي رسول ليكون حاملًا لهذا الكتاب ومبلِّغا لما فيه، رسول يصطفيه الله ويختاره من بين البشر، محمد ﷺ، وترعاه العناية الإلهية وتحفه بالإعداد اللازم للقيام بالمهمة الثقيلة الملقاة على عاتقه؛ كي يكون على قدر تحمل مشاق هذا الأمر الجلل.

من هنا كانت مهام التبليغ لا يقوى عليها سوى أولى العزم من الرسل، وتبدأ رحلة البلاغ مسيرها مع النبي كلما آتاه الوحي بآيات الذكر الحكيم؛ إذ يقوم النبي على فوره بإبلاغ ما جاءه لمن حوله ممن آمنوا بدعوته. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧).

ويتواصل مع البلاغ الآيات الحاثة والموضحة لمن يتلقاها أنها رسالة رب العالمين للناس كافةً لا تقف عند حدود جنس أو عرق أو فئة ولا تتجاوزها، فيأتي قول الله تعالى لرسوله تأكيدًا على ذلك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الحج: ٤٩).

ويأتي زمان وتغيب فيه معالم هداية القرآن، وتنمحي مقاصده العليا لدى أمة القرآن، ويضرب الشقاق والخلاف بأطنابه في أمتنا الجريحة، ويبقى هناك نفر ممن هداهم الله للقيام بما توجب ولزم من تدبره تدبرًا يجلي بيانه العلوي، ويبرز ما في جوهره من هدي، ليست فقط أمتنا في حاجة إليه، بل إن البشرية من أهل هذا الزمان والأزمنة القادمة في حاجة ماسة له.

من هنا كانت تلك المحاولة في الاجتهاد عليها تقدم القرآن كطوق نجاة للإنسانية بعدما عجزت كل المشاريع والأفكار التي هي نتاج بشري يعتريه الضعف والنقصان، نعم عجزت كل المحاولات البشرية في أن تقدم خلاصًا ينقذ العالم في يومنا هذا ويجنبه الضياع واشتعال الحروب وتفاقم الأزمات التي يدفع ثمنها الجميع.

لقد وصلت تلك الفلسفات والمناهج والأفكار بالبشرية إلى حافة الهاوية التي ليس بعدها سوى السقوط، بعد أن صار العالم اليوم يحكمه قانون الصراع والتطاحن وشريعة الأقوى للوصول إلى السلطة والتحكم في رقاب الناس.

في هذا الكتاب الحكيم - القرآن الكريم - ما نحتاجه في حياتنا، وكل ما تحتاجه الإنسانية من حلول في مأزقها الراهن الذي تعيشه، ففيه من عناوين القصص ما يكون منه العبرة، وفيه من عناوين العقيدة والتوحيد ما يكون فيه المخرج من الشطط والانحراف، ومن عناوين التشريع ما يكون فيه بناء الأسرة والتي هي اللبنة لبناء المجتمع بناء سليمًا لا عوج فيه.

القرآن وخطابه للإنسانية جمعاء

ويكمن الهدف الأكبر خلف آيات القرآن الكريم هدف فيه يستوي قوام النفس مع اتزان العقل، حين يكون التوحيد بالإله الواحد هو الضمانة الأقوى لتزكية النفس وخلوصها من الوهم والخرافة والزيغ والانحراف، فالخطاب الإلهي ليس له سوى مصدرواحد أحد هو سبحانه وتعالى.

وتفصيل الخطاب وبيانه ليس له مكان سوى في القرآن الكريم. كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والخطاب الإلهي هذا موجه للإنسان فهو المعني به وهو المقصد لهذا الخطاب، وكأنما هذا الإنسان في كون الله هو مشروع الله سبحانه وتعالى الأكبر، والذي من أجله كانت الرسالات والرسل.

فعناية الله على طول الزمان ترافق الإنسان بالتوجيه والإرشاد ليقوم الإنسان بما كان من أجله الاستخلاف في الأرض حين ينطلق سعيه في الأرض ناحية إعمارها وتنميتها، لكن ليس قبل أن يتم بناء الإنسان نفسه، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، فكيف سيكون الإنسان قادرًا على إعماروبناء ما حوله وهو بعد لم يستو البناء الداخلي في نفسه بالإيمان والتزكية والأخلاق الحميدة.

من هنا كانت عناية الله ببناء الإنسان أولًا عب التزكية وبث روح الإيمان والعمل، بل واستنهاض قواه العقلية من خلال التدبروالتفكر، كل ذلك من أجل أن يكون جديرًا بمهام استخلافه في الأرض، ومن ثم إعمارها وإصلاحها.

من هنا كان اعتماد القرآن الكريم على التنسيق بين المرتكزات الثلاث (غيب، وإنسان، وكون) ليكونوا في دائرة من الانسجام والتناغم بغية تحقيق مراد الله في خلقه

للإنسان، فيأتي التشريع الإلهي حين يقول هذا الشيء حرام لا تقربه، وذاك حلال لكم فإنما هي عملية تقويم وترشيد للسلوك الإنساني، إذ تباعد بينه وبين ما يضره، وحين يكون التوحيد أصلًا للوصل الصحيح مع الله، وهذا حق من حقوق الله علينا - الإقرار بوحدانيته وتفرده بالملكوات كلها - فإنما يكون ذلك بمثابة الاتزان والعدل اللذان بهما تستقيم حياتنا صلاحًا وإعمارًا.

من هذا التفاعل يحدث الفعل الإنساني، والفعل الإنساني يحتاج إلى عملية تقويم، وبدوره هذا يترك التوحيد بهذا المغزى أثره علينا في إعطاء كل ذي حق حقه وتلك أولى خطوات الاستقرار والأمن ودرأ العداوة والبغضاء بين الناس.

مكانة الإنسان في القرآن التكريم

لقد أنزل الله الإنسان منزلةً من التكريم والرفعة لم تكن لمخلوق سواه، ويأتي القرآن الكريم لينطق بتلك الحقيقة بيانًا ساطعًا، ووضوحًا مشرقًا، فيقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ (الإسراء: ٧٠)، تلك هي القاعدة التي استقرت عليها المكانة الرفيعة للإنسان، فكان أن حاز عن جدارة استخلاف الله له في الأرض، والقيام على عمارتها، بل تخطت مكانة الإنسان في علوها منزلة إلى أن صار مسؤولًا يحمل أمانَة كبرى في تحقيق مراد الله في كونه.

من هنا كان لا بد من استحقاق يمنحه الله للإنسان وعلى الإنسان أن يحافظ عليه، إنه استحقاق الحرية التي هي ميزت الإنسان عن سائر المخلوقات، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان حرًّا وحرم استعباد الإنسان للإنسان، وقد حكى لنا القرآن قصة موسى وفرعون لتكون منها العبرة والعظة لما أرسل الله موسى لفرعون يحذره مغبة استعباده لبني إسرائيل. قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ (إبراهيم: ٦).

فكان أن خاض موسى غمار مواجهة شاقة لتخليص بني إسرائيل من قبضة البطش قبضة فرعون لتتكرس حكمة الله في إرسال الرسل لدعوة أقوامهم للتحرر من نير الاستعباد، فالله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان بالحرية وجعلها تاجه الذي لا يسقطها من فوق رأسه، وليس أدل على ذلك من أن مهمة الإنسان الأساسية والتي من أجلها صار خليفة لله في الكون: مهمة إعمار الأرض وإقامة العمران والمدن ونشر القيم والمبادئ السامية لرفعة الإنسانية.

تلك المهمة لا يستطيع القيام بها سوى الأحرار، تلك المهمة التى ناشدنا الله فى قرآنه بالقيام بها إذ قال تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ (هود: ٦١)، لذا لم يكن الله تبارك وتعالى يرضى لهذا الإنسان أن يستعبد أو يستذل، ولذلك قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٧٥).

الأخلاق هي قاعدة التقدم في القرآن

إن ما تعانيه مجتمعات الحداثة في عالمنا المعاصر لم يكن جديدًا في تاريخ الإنسانية، فما وقع فيه العالم المتقدم من تردي الأخلاق وهيمنة الفكر المادي على السلوك لهو مما حذرنا منه القرآن في قصصه فيما جاء عن سير الأولين ممن خلت حضارتهم - رغم تفوقها وتقدمها وما حازوه من قوة - من الأخلاق والقيم والمبادئ، فقد ذكر الله لنا في قرآنه نبأ تلك الأمم التي كانت في الماضي السحيق رغم تفوقها الحضاري وعمارتها للأرض، إلا أنها كانت في الدرك الأسفل من الانحطاط الأخلاقي والتردي الإنساني، إنهم قوم عاد. فقال تعالى في شأن تقدمهم في العمارة وتمكنهم المادي: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**﴾

(الشعراء: ١٢٨).

وعن قوتهم العسكرية والقتالية قال تعالى: ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ (الشعراء: ١٣٠)، وفي شأن من شابههم من قوم عاد قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ (فصلت: ١٥).

وقد أشار القرآن الكريم إلى تفوق عاد في شتى الميادين، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾ (الفجر: ٦ - ٨)، وفي وصف ذكاء عاد وثمود ونفاذ بصيرتهما العلمية قال تعالى: ﴿**وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ**﴾ (الفجر: ٩ - ١١)، وقال سبحانه: ﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**﴾ (الشعراء: ١٤٩).

وقال تعالى: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**﴾ (العنكبوت: ٣٨).

وفي ذلك من الإشارة إلى أن عادًا وثمود ومن تبعهم قد تخلوا عن القيم والفضيلة والأخلاق وعاثوا في الأرض ظلمًا وفسادًا وعلوا رغم تفوقهم العمراني والعسكري، فكم من أمم بلغت الذروة في البناء والتعمير والقوة العسكرية، ولكنها تجبرت وطغت وتهاوت أخلاقها، وكان ذلك إيذانًا بسقوطها وسقوط حضارتها العمرانية العظيمة منهارة إلى الأبد بسبب فساد أخلاقها؟

ليقف القرآن هنا بقصصه الرائع ليعلم الإنسانية الدرس، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (الروم: ٩).

الخطاب القرآني بين التفعيل والتبليغ

لكي يتحقق لنا ولغيرنا الهدي القرآني لا بد من أمرين:

الأول: تفعيل الخطاب القرآني تفعيلًا صحيحًا في خطاب واقعي ينادي الأمة الإسلامية بالوقوف على فهم مقاصده وأهدافه على النحو الذي بينه الله.

والثاني: تبليغه على الوجه الذي أراده الله منا أن يصل للناس كافةً.

ولكي يتسنى لنا ذلك علينا فهم وإدراك مرامي الخطاب القرآني نفسه إلى جانب فهم واقع عالمنا المعاصر؛ والذي هو مجال توصيل خطاب القرآن له. فنحن نعيش في عالم له طبيعة متنوعة تتشابك فيها وتتقاطع قوميات وجنسيات وثقافات وروافد حضارية مختلفة بل ومتضادة أحيانًا في الاتجاه، إلى جانب ما يطرأ عليه من تغيرات وتحولات سريعة يلزمها مواكبة سريعة تناسب الظرف الزمني المتحرك في طرح وتقديم الخطاب القرآني في قالب عصري يخاطب الناس بخطاب يلائم حالهم وظروفهم، فخطاب القرآن ليس لأمة دون أخرى ولا لجنس ولا عرق ولا قوم دون غيرهم. هو خطاب الله للإنسانية جمعاء.

نداء القرآن للإنسانية

ويأتي نداء القرآن لا لينادي المسلمين من دون الناس، بل ينادي الإنسانية جمعاء بما يحقق لها الأمن والسلام والعيش المشترك على أسس من التكامل والتعاون في نداءات تسمو علوًّا ورفعةً، يناديهم بنداء التوحد حين يؤكد لهم أن البشر كلهم من أصل واحد، لا ميزة لقوم على غيرهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ (النساء: ١). بل يذكرهم بأنهم كانوا أمةً واحدةً، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ (البقرة: ٢١٣).

وينادي القرآن الكريم في الناس بنداء المساواة:

- المساواة في خصائص الإنسانية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣).

- المساواة في دعوة الهدى لكل الناس قال تعالى: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ**﴾ (يونس: ٢)، وقوله سبحانه: ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾

(إبراهيم: ١).

- المساواة في الحقوق والعدل لكل الناس: قال تعالى: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ (النساء: ٥٨)، وقوله سبحانه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ (الحديد: ٢٥).

- المساواة في المعاملة: قال تعالى: ﴿**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ (الأعراف: ٨٥)، وقال سبحانه: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ**﴾ (المطففين: ١ - ٢).

أطوار الخطاب الإلهي في القرآن:

وعلى طول سياق القرآن الكريم، يتبدى بوضوح تام أطوار الخطاب الإلهي، وقد مر بمرحلتين مهمتين في تاريخ البشرية:

المرحلة الأولى... كان فيها الخطاب الإلهي موجهًا بالاختصاص والتحديد لجماعة أو قوم أو عائلة، كما في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(آل عمران: ٣٣)

وتكمن الحكمة الإلهية في اصطفاء الله تعالى وحصره لخطابه الإلهي في قوم بعينهم، حين يكون هؤلاء حماة للدين وحراس له ريثما تصل البشرية لتمام مراحل نضجها، ساعة تكون مؤهلة لتلقي الرسالة الخاتمة العالمية، حيث كانت البداية في الخطاب الاصطفائي الحصري بآدم، ثم بقوم نوح، ثم بخلائف قوم نوح، ثم بإبراهيم، وإلى يعقوب والأسباط، ثم آل عمران من ذرية إبراهيم، وإلى يحيى بن زكريا، ثم تحوّل الخطاب إلى ذرية إسماعيل بن إبراهيم انتهاء بمحمد خاتم - النبيين عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

فكل الرسل والرسالات المذكورة في القرآن إنما جاءت بخطاب إلهي حصري اصطفائي ينتهي ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

المرحلة الثانية... مرحلة الخطاب العالمي، ويبدأ ببعثة محمد ﷺ إلى قيام السّاعة، ومن ثم فإن ختام النّبوة ليس مقصورًا على ميقات زماني فحسب، بل إن ختامها مقترن بحدث في ذاته، وهو انتهاء الخطاب الإلهي الحصري الاصطفائي لينطلق الخطاب العالمي للناس كافة.. ويبدأ بالتخصيص العربي حين يكون كلام بلغة العرب، إيذانًا بنهاية الاصطفاء وتحولاً للعالمية في الخطاب..

فالخطاب القرآني بعالميته استطاع استيعاب الحضارات القديمة، بما تحويه من ثقافات متنوّعة وأديانٍ متعدّدة وأعرافٍ مختلفة، ولم يكن ذلك مانعًا ولا حائلاً أمام تلك الشعوب من الاندماج مع المسلمين والتعايش معهم مع الحفاظ على خصوصياتهم الدينية والثقافية.

وما زال الخطاب القرآني إلى اليوم قادرًا على إعادة ذلك الدور المفقود؛ لأن الله الذي كتب للقرآن العالمية حفظه من التّبديل والتّحريف الذي أصاب الكتب السماوية السّابقة.

(١٦) القرآن الكريم يتحدث عن نفسه

من سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ١٠٨).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

من سورة النساء:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٦٦).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).

من سورة المائدة:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٩).

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (المائدة: ٨٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: ١٠١).

من سورة الأنعام:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٥).

وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (الأنعام: ١٥٦).

وقال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٧).

من سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢).

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣).

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٥٢).

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٣).

من سورة يونس:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس: ١٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٦).

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ١٧).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ٣٩).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٤٠).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يونس: ٤٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١).

من سورة هود:

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: ١٤).

من سورة يوسف:

قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف: ١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢).

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣).

من سورة الرعد:

قال تعالى: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد: ١).

من سورة إبراهيم:

قال تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ (إبراهيم: ١).

من سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ**﴾ (الحجر: ١).

وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ (الحجر: ٦).

وقال تعالى: ﴿**مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ**﴾ (الحجر: ٨).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩).

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ (الحجر: ٨٧).

وقال تعالى: ﴿**وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**﴾ (الحجر: ٨٩).

وقال تعالى: ﴿**كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ**﴾ (الحجر: ٩٠).

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ (الحجر: ٩١).

وقال تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (الحجر: ٩٢).

من سورة النحل:

قال تعالى: ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (النحل: ٦٤).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

(النحل: ٨٩).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ١٠١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

من سورة الإسراء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

(الإسراء: ٤١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٦٠).

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩).

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٨٩).

وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء: ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (الإسراء: ١٠٧).

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء: ١٠٨).

وقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٩).

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١٠).

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: ١١١).

من سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (الكهف: ١ - ٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ (الكهف: ٥٦).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف: ٥٧).

من سورة طه:

قال تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾ (طه: ١ - ٤).

من سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠).

من سورة الحج:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (الحج: ١٦).

من سورة العنكبوت:

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (العنكبوت: ٥٠).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥١).

من سورة الروم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (الروم: ٥٨).

من سورة فاطر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩).

من سورة يس:

قال تعالى: ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يس: ١ - ٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس: ٦٩).

وقال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس: ٧٠).

من سورة ص:

قال تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص: ١).

وقال تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص: ٨).

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩).

من سورة الزمر:

قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر: ١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٧ - ٢٨).

من سورة غافر:

قال تعالى: ﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر: ١ - ٢).

من سورة فصلت:

قال تعالى: ﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ١ - ٣).

وقال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت: ٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: ٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١ - ٤٤).

من سورة الشورى:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧).

من سورة الزخرف:

قال تعالى: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ١ - ٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

(الزخرف: ٣١).

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

من سورة الدخان:

قال تعالى: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الدخان: ١ - ٦).

من سورة الجاثية:

قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجاثية: ٢).

من سورة الأحقاف:

قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الأحقاف: ٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١٢).

من سورة محمد:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٢).

من سورة ق:

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١).

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥).

من سورة القمر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧).

من سورة الواقعة:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ - ٨٢).

من سورة الحديد:

قال تعال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد: ٩).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

من سورة الحاقة:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

(الحاقة: ٤٠ - ٥٢).

(١٧) استهداف الخطاب الإلهي

لقد دعا الله الناس جميعًا في قرآنه الكريم لاتباع سبيله سبحانه وهو الطريق القويم، فكان أمره لنا بإطاعة رسوله الكريم بعد أن حمله رسالةً للإنسانية جمعاء، فقال تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ (النور: ٥٤)، فطاعة الرسول (صلوات ربي وسلامه عليه) أتت كونه حمل إلينا عن ربه الكتاب الحكيم: القرآن الكريم.

وهذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق فيه الصلاح والخير والهدى والنور لعباده في الأرض كل العباد، فهو طوق نجاة للبشرية حيثما كانت وأينما ستكون، فهو دستور الإنسانية الذي لا يعلوه دستور في تهذيب السلوك والارتقاء بالأخلاق، وتنظيم المعاملات وحفظ الحقوق، وإقامة العدل على أسس من المساواة من دون تفريق بين دين وآخر. وفيه أيضًا من توجيه العباد إلى العبادات على النحو الصحيح، والذي فيه تُؤَدى تلك العبادات والفرائض من صلاة وزكاة وحج إلى رفعة النفس وخلوصها من أوضار التردي.

وهذا الكتاب المحكم - القرآن الكريم - قد جعل الله فيه من إشارات التنبيه والتحذير ما يقي الإنسان من شرور نفسه ووصولها لحال الطمأنينة كي لا تنزلق نحو الأحقاد والضغائن والشرور. في هذا القرآن دليل الرشاد الذي يعين الإنسان على جادة الصواب وعلى صراط الله المستقيم ليكون جزاؤه خير الجزاء يوم القيامة.

وقد قام الرسول ﷺ بحمل هذه الرسالة خير قيام، حيث اختاره الله سبحانه وتعالى لتبليغها للناس كافةً، عبر هذا الكتاب الكريم، فهو النور الذي يهديهم إلى طريق الخير

والصلاح، وقد أتم محمد ﷺ البلاغ كما أمره ربه، ولاقى في سبيل ذلك من صنوف الأذى والمحن والصعاب ما لاقى.

تحمل كل ذلك بإيمان ثابت، ويقين لم يتزعزع قط بأن الله ناصره ومؤيده بقوة من عنده سبحانه، فواصل بإصرار منقطع النظير سبيله نحو هدفه من دون خوف أو تردد فيما كلفه الله تعالى به حتى اكتمل الأمر، وبلغ الدين تمام بيانه. فوقف ﷺ في حجة الوداع، وعلى ملأ من الأشاهد يتلو قول الله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ (المائدة: ٣).

لتكون تلك الآية الكريمة التي أنزلها الله على رسوله بمثابة الإعلان المهم بتمام استكمال الدين في خاتمة الرسالات السماوية، تلك التي أودعها الله في قرآنه وأمر رسوله بإبلاغ آياته للناس جميعًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ (ق: ٤٥).

فهو خطاب الله للإنسان والذي حوى بين طياته الشريعة الإلهية، ودعوة الناس للإسلام: الإسلام الذي ينادي الإنسانية أن تؤمن بالله الواحد الأحد، وأن تؤمن برسوله محمد ﷺ، وأن تؤمن بكل الرسل والأنبياء من لدن آدم (عليه السلام) حتى مبعث الرسول الخاتم ﷺ.

نعم؛ إنه القرآن الذي هو بمثابة الخطاب الإلهي لبني الإنسان: خطاب إلهي حمل تشريعًا إلهيًّا ينظم العلاقة بين الله وعباده، وينظم العلاقة بين الإنسان ومجتمعه، وبين الانسان ووالديه، وبين الإنسان وسائر البشر.

إنها المبادئ القرآنية التي لو تمسكنا بها دستورًا ومنهجًا وطريقًا لكان لهذه الأمة حياة العز والشموخ بقوة دينها وعقيدتها، ولتقدمت على الأمم الأخرى بقوة أخلاقها وتشريعاتها المُؤَسسة على العدل والرحمة والسلام. وقد اختص الله سبحانه نفسه، واحتفظ بحقه

في حساب خلقه يوم الحساب، حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ (الغاشية: ٢٥ - ٢٦).

لقد اختار الله سبحانه رسوله من بين خلقه، ليحمل رسالة الله للناس، حيث يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ١١٠). وقال تعالى لنبيه: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا**﴾ (الإسراء: ٩٣).

رسول من الله يعلم الناس، ويفسر لهم من التشريعات الإلهية ما لم يقفوا عليه بيانًا، ويرشدهم لمراد الله في أوامره لعباده، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ (الأحزاب: ٢١)، ليكون الاقتداء بأخلاقه وصفاته، حيث جعله الله قدوةً للمسلمين الصادقين في عبادتهم لله، وتصرفاتهم وسلوكياتهم التي شرعها الله لهم في منهج يرتقي بالإنسان بقيم إيمانية وأخلاق سامية.

من هنا توجب علينا وعلى كل غيور على هذا الدين وعلى أمته تصحيح المفاهيم الملتبسة المغلوطة، والترهات والأراجيف التي تعج بها مصنفات الفقه والتفسير، وما أكثرها من كتب متنوعة ومختلفة قد اعتمدت على روايات نُسِبت لبعض الصحابة ممن تناقلتها الألسن، والتي يستحيل معها الحفظ والضبط بعد مرور أكثر من قرنين من الزمان على وفاة الرسول، اعتمدوها في توضيح دلالات الآيات في القرآن الكريم، الأمر الذي أحدث ارتباكًا في قناعات المسلمين.

وقد ترتب على ذلك تشويه صورة الدين الإسلامي عند غيرهم من الشعوب، وخاصةً لما حدث الشقاق والتنافر داخل الأمة الواحدة ذات الدين الواحد، فظهرت الفرق المتعددة تحت ألوية من المفاهيم مختلفة عن بعضها البعض، فاستقلت كل فرقة بما

رأته وتوهمته أنه الحق الذي لا حق غيره، فاتخذت كل فرقة من علمائها مرجعًا وحيدًا في كل ما يختص بفقه العبادات والمعاملات.

وتعصبت كل فرقة لمذهبها، ونأت بنفسها عن غيرها، الأمر الذي أدى لخلق كيانات اجتماعية مستقلة في المجتمع الواحد، وصل بها الأمر مداه بأن صار التكفير بين بعضها البعض سمةً ثابتةً، كل هذا سببه فتاوى وتفاسير بشرية سرت خلف روايات ضالة مزعومة، تعددت مصادرها واختلفت أهدافها لتفريق المسلمين والابتعاد بهم عن نهج القرآن القويم.

ليس هذا فحسب، بل إن هناك أيادٍ خفية لعبت في الظلام بقصد وتربص بغية إذكاء روح التمزق والتشتت بين المسلمين لخلق بلبلة فكرية عبر دس روايات مختلقة لا أصل لها؛ كي تتناقلها الألسن على أنها أخبار صحيحة منسوبة إلى صحابة رسول الله وهم منها براء بغية خلق حالة من التناقض؛ تؤدي في النهاية لتجاذبات هنا وهناك، ومن ثم استقطابات عديدة.

وصار لكل فرقة مرجعها الخاص ممثلًا في مرشد ديني مرجعه؛م يصدقون ما يقول وينفذون ما يأمرهم ويطيعون، فداهم الصراع الفكري الجميع، وتحول إلى صراع مادي نجم عنه اقتتال بين أبناء الدين الواحد بعد أن كفر كل منهم الآخر وأخرجه من الملة وأباح دمه، فسالت الدماء وسقطت الضحايا من الأبرياء.

لم يكن كل ذلك مصادفةً، بل كان يقف خلف ذاك المسعى التدميري بالتخطيط والتدبير أولئك الموتورون من الدين الإسلامي، أولئك الذين أضاع هيبتهم نزول الإسلام، وكشف عورتهم ومكرهم وسوء سريرتهم. إنهم اليهود الذين صدمتهم رسالته ﷺ حين أتى نبيًّا من غير ملتهم وجلدتهم، فهم لم يتخيلوا قط أن الله سيختار نبيه الخاتم من خارج اليهود، فقد رسخ في اعتقادهم وهمٌ أن لا أنبياء من غير بني إسرائيل، فهم على حد زعمهم ورأيهم المريض شعب الله المختار.

فبدأوا يخططون الكيد للإسلام بعدما أيقنوا خطورة القرآن على وجودهم وبقائهم، وهذا القرآن الذي هو أصل وأساس رسالة محمد ﷺ قد علا بيانًا وسموًّا على ما يحملونه من أسفار بالية طالها التحريف والتبديل والتزوير.

من هنا خاف اليهود أن يطغى هذا الكتاب على سلطانهم الروحي، وما قد يحدثه من ذهاب هيبتهم وضياع مكانتهم أمام مشركي العرب وغيرهم، فضلًا عن أن القرآن فضح أمرهم، وكشف طبيعتهم الأنانية والإجرامية واستحلالهم حقوق الناس، كما كشف للعيان حقيقة أهدافهم الشريرة، بل وحذر الناس من خداعهم وألاعيبهم، وما جُبِلوا عليه من فرض السيطرة وحب المال وكنزه، واستباحتهم لكل شيء من دون حرمة ولا رادع في سبيل جمعه والحصول عليه، حيث لم تمنعهم كتبهم من قتل أنبيائهم والتآمر عليهم.

فكان لا بد من فعل شيء إزاء هذا القرآن، بعد أن أيقنوا استحالة تحريفه كما فعلوا في رسالة عيسى (عليه السلام) - الإنجيل - وليس أمامهم سوى صرف الناس عنه بطرق خبيثة، وكان على رأس مخططهم الخبيث دس الروايات الملفقة فيما عُرِف بالإسرائيليات، وإطلاقها على أنها أقوال منسوبة للصحابة، ويأتي رواة ويحملونها، وينشرونها بتخطيط منظم للتشكيك في رسالة الإسلام على أنها أقوال منقولة عن رسول الله، وهي في أصلها محض كذب وافتراء.

وانطلت الخدعة على المسلمين، ونجحت خطط اليهود الجهنمية والشريرة، في صرف المسلمين عن كتابهم الذي يهدي للتي هي أقوم، ذلك أن اليهود يخشون من انتشار هذا الدين ويعرفون خطورة ذلك عليهم لما في القرآن من فضح أمرهم، وكشف مكرهم، وذكر تاريخهم الدموي وخصالهم العدوانية، من هنا كان استهداف القرآن من قبل اليهود هو أمر حياة أو موت، والله يقول عن هذا القرآن: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء: ٩).

وشاركهم في تنفيذ مخططهم الدنس على نفس الهدف علماء المجوس، أولئك الذين أخذتهم العزة بالإثم حينما استطاع المسلمون - على قلة عددهم نسبةً لجيش الفرس (بقيادة رستم) - أن يهزموا الإمبراطورية الفارسية ويتسببون في سقوطها، فقرر الفرس الانتقام من العرب المسلمين، خاصةً لما وقفوا على أهم سبب لانتصار المسلمين.

إذ لم يكن السبب في القوة العسكرية للعرب تلك التي كانوا يفتقرون لها ولا يملكونها، ولا كثرة العدد. لكن سبب الانتصار كان حملهم تعاليم وروح القرآن في القلوب والعقول، حيث أسر العرب المسلمون ثلاثًا من بنات ملك الفرس، وقد تزوج إحداهن الحسين بن علي بن أبي طالب.

حينئذ أيقن الفرس أن سبب هزيمتهم يكمن في هذا الكتاب المُنَزل على محمد (صلوات ربي وسلامه عليه)، فاختار هؤلاء الخطاب الإلهي في الاستهداف، حين دفعوا بعض علمائهم للدخول في دين الإسلام كي يتعرفوا على أسراره، ويكتشفوا مواطن الضعف لدى المسلمين، ومن ثم تتوجه السهام نحو غايتها.

وكان سبيلهم في ذلك عبر الروايات التي اختلقوها ونسبوها للرسول زورًا وبهتانًا كي تلقى في العقول والنفوس تسليمًا وتوقيرًا إيحاءً منهم بأنها صادرة عن صحابة رسول الله، حتى لاقت لدى المسلمين تصديقًا وتسليمًا، فضلًا عن حشد هائل من الروايات المعنعنة: عن فلان، عن فلان.

وهكذا صار الأمر الذي نجم عنه نشوء حالة عامة من تصديقها والإيمان بها، والاقتناع بفحواها، وتعددت اتجاهات الروايات ومقاصدها، فنشأت طوائف تبنت كل طائفة مرجعيةً خاصةً بها، وروايات تستند إليها في شرح توجهاتها الدينية، واعتمدتها أساسًا للخطاب الديني، حتى أصبح لكل طائفة خطابها الديني الخاص بها.

وبذلك تعددت المراجع، وانتشر الفكر التكفيري، وصارت كل طائفة تكفر الطائفة الأخرى، بل وتعتقد بأن قتالهم جهاد في سبيل الله، وتحول الأمر إلى أن يقتل المسلم أخاه المسلم تحت دعاوى باطلة وبفعل أياد خبيثة، ادعت دخول الإسلام واعتناقه، وهي تكن كرهًا له وعداءً دفينًا في النفوس.

وتحركت الفتنة وانطلقت من جحرها، فالقتل أصبح باسم الدين، فيقتل الأخ أخاه وهو يهتف مكبرًا - الله أكبر - إنهم المجوس عبدة النار الفرس الموتورون لضياع سلطانهم، هم ومن أوعز إليهم من اليهود بهذا المسلك الخبيث.

فالهدف واحد يجمعهما، ألا وهو صرف المسلمين عن الخطاب الإلهي الذي في القرآن، فكان أن ظهرت الطائفة الشيعية فشطرت الأمة في البداية، بل وأسست لانشطارات عديدة أتت بعد ذلك، وتبعتها الطائفة السنية، حيث انطلقت في منتصف العصر العباسي لتكون موازيةً للطائفة الشيعية.

حيث أصبح لكل منهما منهج مستقل عن منهج رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ بعدما تم إقصاء القرآن الكريم من التعامل معه كونه الدستور الأوحد ونهجًا للحياة متكاملًا، فتاه المسلمون في دروب معتمة، واشتد الصراع بينهم وغربت شمسهم باختلاف مسميات مرجعياتهم الدينية، تلك المرجعيات التي جعلت من نفسها أوصياء على الإسلام.

وخرج الفكر المتطرف الذي أدى لاستباحة الدماء وقتل الأبرياء وتكفير المسلمين، واتخذت الفرق السنية مراجع خاصةً بها في مواجهة مراجع التشيع، فتعددت المرجعيات التي اعتمدت على الروايات، الأمر الذي تسبب في نشوء الفرق المختلفة، وتسبب في هذا الصراع الدامي بينهم والمتواصل إلى يومنا هذا.

اليهود وضرب الإسلام

اليهود يعلمون أن الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ هو كتاب مُنَزل على رسول قد ابتعثه الله، وأن هذا الكتاب سوف يكشف أمرهم وماضيهم الأسود في عدائهم للإنسانية واستباحتهم حتى دماء الأنبياء، ففي آيات القرآن الكريم تكمن الأدلة التي تدينهم وتفضح خباياهم وزيف ما روجوا له من أكاذيب ادعوا فيها أنهم المقربون ومن اصطفاهم الله من دون الناس كافةً.

نعم؛ في هذا الكتاب المبين - القرآن الكريم - ذكر ماضيهم السيئ وظلمهم للناس واستباحتهم الأموال والحقوق بالباطل، واغتصاب ما ليس لهم فيه حق، وتعاملهم مع الناس باستعلاء وتكبر، فضلًا عما وصفه القرآن عن ألاعيبهم الخبيثة من خيانة للعهود والتجسس على الناس وإثارة الإشاعات والفتن في المجتمعات لتأجيج الصراع بين القبائل، وذاك دأبهم الذي اعتاشوا عليه، فهم متعطشون دوما للدماء والاغتيالات.

لذا أحس اليهود فيما إذا انتشر هذا القرآن وساد أمره بين الناس حتمًا سوف يفضح مؤامراتهم ومكائدهم وشراستهم، من هنا أدركوا خطورة هذا القرآن عليهم، وأيقنوا بأن هذا الكتاب سيقف حائلًا دون وصولهم لطموحاتهم الشريرة في السيطرة على المجتمعات الإنسانية.

لذا لم يجدوا وسيلةً تحميهم من هذا الخطر القادم - الذي يحمل معه أخبار السماء عن سيئاتهم وطموحاتهم التي تستهدف الإنسانية جمعاء - سوى إقصاء القرآن عن الناس من خلال الحرب النفسية تلك التي تعتمد على الشائعات وبث بذور الفتنة واختلاق الروايات المنسوبة للصحابة وترويجها على أنها أقوال صادرة عن رسول الله ﷺ بعد أن قام بعض علمائهم بدخول الإسلام من باب النفاق والتقية والمخادعة في العلن.

لقد دخلوا الإسلام ظاهريًّا وهم يبطنون كل العداء والكفر بهذا الدين، وهذا الذي أهلهم وجعلهم على دراية كافية بمواطن الضعف عند المسلمين الذين آمنوا برسالة الإسلام، بل إن هذا المسلك الخبيث مكنهم من معرفة تفاصيل خاصة بالقبائل العربية ومدى اعتزاز كل قبيلة بنسبها وقومها، ومن هذا المدخل استطاعوا إثارة الفتن والقلاقل فيما بينهم.

اليهود في يثرب

بعد وصول الرسول ﷺ إلى يثرب، وبعد الاستقبال العارم من قبل قبائل الأوس والخزرج واحتضانهم رسالة الإسلام، حيث توحدت القبائل العربية تحت قيادته بعدما ألف بين قلوبهم وجمعهم على كلمة واحدة؛ شعر اليهود بأن الدين الجديد بدأ ينتزع منهم القيادة والسلطة في يثرب، وهم الذين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ويحملون كتاب التوراة ويتفاخرون به على مشركي العرب، فإذا بالأقدار تقلب الأمور أمام أعينهم رأسًا على عقب، وإذا بالمفاجأة!

يخرج من بطن العرب رسول يحمل كتابًا منزلًا من عند الله يختتم به كل الرسالات السابقة، ويضع فيه تشريعًا للبشرية كلها على أساس من المساواة والعدل والحرية والرحمة والسلام، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا لما أحسوا بأن رسالة الإسلام تنسجم مع الفطرة الإنسانية وتتناغم مع النفس البشرية، حينها وجد اليهود أنفسهم في مأزق تاريخي، إذ إن تلك الرسالة التي يحملها محمد ﷺ ستفضح ماضيهم، بل إنها ستقضي على طموحاتهم في السيطرة على المال والناس وتسخير المجتمعات الإنسانية في خدمة مصالحهم.

وتبقى صفات اليهود هي من تجعلهم دومًا في عداء مع من ليس منهم، فهم أعداء للإنسانية جمعاء، تلك الصفات التي لازمتهم وصارت من ملامحهم الثابتة، الافتخار والزهو بجنسيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرون العرب احتقارًا بالغًا، وكانوا يرون أن

أموال العرب مباحة لهم، يأكلونها كيف شاءوا، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران: ٧٥).

ولم يكونوا متحمسين في نشر دينهم، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي: الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية.

وصارت لهم سمات جراء تلاحق اللعنات الإلهية، وما أصابهم من بلاء جراء فسادهم وإفسادهم؛ سمات بارزة تفصل بينهم وبين الشعوب التي ينزلون بجوارها حتى تلاصق المزاج الروحي والعقدي مع السلوك الاجتماعي مكونًا الشخصية اليهودية التي نعرفها بكراهيتها للشعوب وغيرهم من الأقوام، والانتهازية، والثراء على حساب الفقراء والضعفاء، والوصول على أشلاء الضحايا وبذر الفتنة فيمن حولهم.

وترسخت كل هذه الصفات مع مرور الزمن على الشخصية اليهودية، وصار لها طابعها المميز، ولكي لا يشعروا باستصغار أنفسهم أمام الآخرين، وأنهم دون المقاييس الأخلاقية والإنسانية ارتدوا رداء الفوقية على البشر: الفوقية على الناس، والفوقية على الشعوب، والفوقية على أي دين سوى ما يعتقدون؛ حتى تبلور الأمر معهم في مرحلة اكتمال الضلال أن صار بمرور الزمن من أهم ملامح الشعب اليهودي تماسكه وتجانسه واعتداده بذاته، واستعلائه على الآخرين وادعائهم بأنهم شعب الله المختار.

لقد شردهم الله في الأرض، لكنهم لا يدركون أن تشريدهم إنما بسبب معاصيهم، فلما خرج اليهود من فلسطين أشتاتًا، وكانت هناك نبوءة بين طيات أسفارهم قديمة، ما فتأت تراودهم، كلما نزلت بهم نازلة، أو حل عليهم بلاء، تقول بظهور نبي في جزيرة العرب، هو نبي آخر الزمان، وقد عبر القرآن عنها بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي**

﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فاعتقد أكثرهم أن لا نبي من خارج بني إسرائيل، لكن النبوءة التي وردت في كتبهم لم تحدد هوية النبي ولا قومه.

فترسخ في أذهان اليهود أنه منهم، لكن النبوءة حددت مكان خروجه، أرض العرب، فوجد اليهود فيها عزاءً لوضعهم، وتخفيفًا لآلامهم، فتوهموا أن ما يلاقونه من تشريد وتيه في الأرض، ما هو إلا مقدمة لأمر جلل، فيه تتحول البشرية قاطبةً عبيدًا لهم بظهور نبي آخر الزمان، فليس يملك كتابًا سماويًّا وتشريعًا سواهم، وليس يمسك بأهداب التاريخ القديم سواهم، وليس يملك المال والحيلة سواهم، وليس يملك الدهاء والمكر سواهم، فلن تكون نبوة إلا فيهم.

حتى ذهب تأويلهم حين نزحوا لجزيرة العرب، إنها رحلة فرار فيها يخفي القدر بين جنباته المفاجأة الكبرى، خروج النبي الخاتم فيهم، فكانوا في يثرب يعيرون العرب الذين يعبدون الأوثان ويتعالون عليهم بما عندهم من كتاب موسى، وكان العرب من الأوس والخزرج كلما كالوهم بضربة موجعة، توعدهم اليهود بأنهم ينتظرون نبيًّا قد شارف أوانه، وسيصطفون خلفه وسوف ينتقمون من العرب ويحتلون ديارهم.

ولا يلقي العرب بالًا بهذا الكلام، وإذا بالمفاجأة التي قلبت أمور اليهود رأسًا على عقب حين يأتي النبي الذي قالت به البشارة في أسفارهم، وتصدق النبوءة. لكن المفاجأة أن هذا النبي من أولئك العرب الذين كان اليهود يستهزئون بهم ليل نهار، ويتوعدونهم بقتالهم به، فإذا بهم أول من يكفر به، ويحاربه لأنه لم يأت على ما تمنوا في نفوسهم. ولم يأت من بني إسرائيل.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾ (البقرة: ٨٩)، كفروا به مع أنهم كانوا ينتظرونه؟

والجواب: إنهم أرادوه أن يكون منهم ولهم، وأن يقوى سلطانهم على الناس ويعلي مكانتهم، ولكن الإسلام جاء على يد رجل من العرب وليس من اليهود، وسوى الإسلام بين الناس وفقدوا بذلك ميزة شعب الله المختار، كما كانوا يدعون.

وأسرع عرب يثرب ودخلوا هذا الدين، وكان اليهود يتمنون أن يكون النبي منهم، وأن يكونوا هم دعاة الدين الجديد لينتصروا به على العرب، فأما وقد دخله العرب قبلهم فلا فائدة فيه لهم، وبدأت من هنا عداوتهم لهذا الدين الجديد.

بداية العداء في المدينة

لما أعز الله المدينة (يثرب) بنزول النبي ﷺ بين ظهراني أهلها، وتوحدت كلمتا الأوس والخزرج على يديه، وصارت المدينة تحت قيادة واحدة - قيادته (صلوات ربي وسلامه عليه) - لم يبق سوى صياغة دستور يحكم المدينة بشتى طوائفها، من دخل في الإسلام، ومن بقي على وثنيته وكذا اليهود، فكانت وثيقة المدينة تلك التي صاغ نصوصها الرسول بدقة وعناية فائقتين، كي لا يجور أحد على أحد، فالكل في وثيقة المدينة متساوون في الحقوق والواجبات.

ففي وثيقة المدينة كفل الرسول لليهود وغيرهم حرية العبادة، وأعطاهم الحقوق التي كفلها لهم الإسلام، وفي مقابل ذلك يلتزم اليهود بالتعاون مع المسلمين عسكريًّا لحماية وطنهم المشترك - المدينة - إذا ما تعرض لعدوان ويلتزمون كذلك - حسب بنودها - بالتعاون ماديًّا إذا حدث ما يحتاج إلى التعاون المادي، وكانت روح المعاهدة قائمة على العمل المشترك، وبهدف مشترك.

بيد أن اليهود - كما هو معروف عنهم تاريخهم ذلك - لم يحترموا عهودهم، ولم يدخلوا في هذا العهد إلا لحين يجدون لأنفسهم طريقًا آخر، فقد أحسوا منذ اللحظة الأولى أن

الدين الجديد ينتزع منهم القيادة التي طالما افتخروا بها، وهي الصلة بالله عن طريق كتبهم، وهي كذلك الافتخار بكتاب مقدس من عند الله.

وزاد حقد اليهود حينما رأوا دين محمد ينمو نموًّا واسعًا في أقصر مدة عرفها التاريخ، فاليهود يعرفون كيف تعثرت اليهودية، وكيف حُورِبت المسيحية عدة قرون، ولكن انتصار محمد بدأ يتحقق في حياته، وبعد سنين قليلة من بدء دعوته، وبخاصة عندما تمت الهجرة، وبعد تسارع انتشار الإسلام بما تحمله آياته من عدل ورحمة وصلاح لجميع بني البشر.

وجد اليهود أنفسهم في مأزق تاريخي لم يحسبوا له حسابًا، كيف يواجهون هذا الخصم العتيد؟ خاصةً وبعدما تأكدوا من صدق نبوته، وما في ذلك من الخطر الداهم عليهم، إذ سيأتيه الوحي الحقيقي، ويخبره بماضيهم الذي لا يعرفه أحد، ماضٍ أسود كريه مست فيه أياديهم الدنسة أنبياء الله بالقتل والغدر، كما طالت من ليس على ملتهم، ولسوف يفضح الوحي أمرهم وسوء سريرتهم العدوانية، وحبهم للمال وإفساد المجتمعات من حولهم.

فديدنهم هو العيش على أشلاء الدمار والخراب، وحنثهم بالعهود والمواثيق، وفساد وإفساد في الأرض. كل هذه المخاوف دارت بأذهانهم فبدأوا الاستعداد لجولة من الحرب، والمواجهة مع هذا النبي القادم بخبر السماء.

وسلك اليهود في ذلك مسالك شتى؛ استهلوها بالدهاء عبر التشويش الفكري وبلبلة العقول وتشويه الحقائق، فليس سواه من سبيل، الجدل الذي يغرق أهل المدينة في أتون الصراع بالإشاعات والفتن والتشكيك في رسالة الإسلام، والطعن في رسول الله بمختلف الطرق والوسائل.

فأثاروا جدليات وفرضيات في الاعتقاد، في القضاء والقدر، وما بعد الموت، ونزول الملك من السماء، وخلق الأفعال، وكل ما هو من قبيل ما لا تستوعبه عقول أهل المدينة، التي ما برحت جاهليتها الوثنية إلا قليلًا بغية التشكيك في دعوة النبي محمد ﷺ. وإذا بالقرآن يتنزل على النبي ليحذر المسلمين ويحثهم على عدم الالتفات لهم.

قال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة: ١٠٩).

حتى وصل بهم الأمر في مراحل متقدمة أن استدرجوا زعماء قريش في حوارات، ومن ثم ينبرون في الإجابة عليها، فسأل سادة قريش اليهود - كونهم أصحاب الكتاب الأول - عن الدين الذي أتى به محمد قائلين لهم: يا معشر اليهود أنتم أعلم بالكتاب منه، أفديننا خير أم دين محمد؟

فأجابهم اليهود بأن دين قريش الوثني أفضل من دين محمد، وهم يضمرون حقيقة الأمر، ونزلت فيهم الآيات تحاكي ضلالهم.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا**﴾ (النساء: ٥١ - ٥٢).

لم يتركوا بابًا في ترصد الرسول ﷺ إلا ودخلوا منه، حتى السباب والتطاول قد فعله هؤلاء اليهود، فكانوا من حقدهم يسيئون الأدب مع رسول الله ﷺ في حضرته وأثناء خطابه، فكانوا يحيونه بتحية في باطنها الأذى والحقد عليه، مما يدل على خبثهم وسوء أخلاقهم وبغضهم الشديد لرسول الله ﷺ والمساس بهيبته ليصغر في عيون الناس للتقليل من شأن مكانته.

فنزلت آيات الله تحاكي سوء طويتهم في ذلك. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (المجادلة: ٨).

وتواصل كيد اليهود ولم تفتر لهم همة في هذا الاتجاه، فاجتمع اثنا عشر حبرًا من أحبار يهود خيبر، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب، ثم أعلنوا كفركم آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا أن محمدًا ليس هو المبعوث الذي كنا ننتظره، وظهر لنا كذبه. فإذا فعلتم ذلك شك أصحاب محمد في دينه، واتهموه وقالوا عنا إننا أهل الكتاب، وأعلم بذلك، ونزل القرآن يحاكي ما دبروا ويفضح أمرهم.

قال تعالى: ﴿**وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (آل عمران: ٧٢).

ولم تأت الحرب الفكرية الجدلية بما تمنوا، إذ لم يترك نزول القرآن لهم مجالًا لما يروجونه، ما إن يطلقوا رأيًا إلا ويأتي الوحي ليرده، ومن ثم يسطع الأمر وينجلي الغبار، حتى بات في يقين اليهود أنه لن يحسم هذا الصراع سوى اللجوء إلى القوة، فالمسلمون صاروا ذو منعة وتمكن، ولن تجدي معهم المهاترات الكلامية، خاصةً بعد أن وجهوا صفعةً قويةً لقريش يوم بدر.

فدار في خلدهم، ماذا لو تحالفوا مع قريش واستبطنوا العداء للمسلمين وراحوا ينخرون من الداخل في قوى المجتمع المسلم، ريثما تتهيأ اللحظة المناسبة وفيها ينقضون عليهم انقضاض الباز على فريسته. وتربص اليهود بالمسلمين حتى أتت تلك الواقعة، تلك التي نزل فيها قرآن كي يذكرنا بفعالهم الخبيثة، إنها واقعة بني قينقاع.

غزوة بني قينقاع

لم يكن بد من حدوث الصدام بين اليهود وهذا الدين الجديد، الذي نزل وحي السماء فيه لمحمد ﷺ، الهجرة ليثرب - المدينة المنورة - قبل موقعة بدر التي انتصر فيها المسلمون، كانت الكلمة العليا فيها لليهود بقبائلهم الثلاث قبيلة بني قينقاع، وقبيلة بني النضير، وقبيلة بني قريظة؛ وفي شمال المدينة المنورة يقع تجمع ضخم لليهود هو تجمع خيبر لكن بعد انتصار الرسول والمسلمين في بدر، رجع وهو يرفع رأسه بعزة وقوة وبأس، فأرهب ذلك اليهود، وبدت منهم بوادر الاحتكاك واستفزاز المسلمين.

وفي السوق التي كانت لبني قينقاع فيها الكلمة العليا؛ يحددون أسعار الذهب والفضة والحبوب والمتاع حسب هواهم، يضاربون بالأقوات ويرفعون معدلات الربا، ولا يراعون في المشترين إلًّا ولا ذمةً. هذه السوق اعتدل فيها الميزان بعد أن دخلها المسلمون تجارًا، يحرمون الربا، ولا يبخسون الناس أشياءهم، ولا يدارون، ولا يمارون، وصار أهل البادية والقبائل المجاورة، يدخلون السوق يبتعدون عن حوانيت اليهود وتوقف التعامل التجاري معهم، ويقبلون على حوانيت المسلمين.

في هذا السوق تعرض نفر من كبراء يهود بني قينقاع لمحمد وأصحابه وفي تحد قالوا له: (يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا).

فكان هذا الأمر بمثابة إعلان حرب من جانب اليهود، ومخالفةً صريحةً لبنود المعاهدة التي تنص على وقف الحرب بين الطائفتين، بل وتجعل من الواجب على اليهود أن يناصروا المسلمين في حربهم ضد من يغزو المدينة المنورة، سواء من قريش أو من غيرها. فأنزل الله آيات بينات تصف مآل مسعاهم الخبيث. قال تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ (آل عمران: ١٢).

وتصاعد الأمر بتعمد وتدبير ممنهج حينما دسوا في سوق المدينة واحدًا منهم قد تعرض لامرأة مسلمة بكشف ثيابها عنوةً، فصرخت المرأة مستغيثةً، فأتى أحد المسلمين وقتل اليهودي الذي فعل ذلك، فاجتمع يهود بني قينقاع على المسلم وقتلوه، فكانت هذه بوادر أزمة ضخمة في داخل المدينة، فقد اجتمعت قبيلة بني قينقاع على قتل المسلم بعد أن قاموا بجريمة كشف عورة المرأة المسلمة.

وصل الأمر إلى رسول الله ﷺ ... وعلى الفور جمع الصحابة وجهز جيشًا، وانتقل سريعًا إلى حصون بني قينقاع، وحاصر الحصون وفي داخلها بنو قينقاع، وأصر على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره.

واستحكم الحصار حولهم، وبدأ الخوف يتسرب إلى نفوسهم الخربة، وخفتت حميتهم الأولى، وتسلب الرعب إلى القلوب، مع كل يوم يمر عليهم في الحصار، حتى إذا جاء اليوم الخامس عشرة لحصار المسلمين لهم، أرسلوا إلى النبي قائلين: يا محمد أعطنا الأمان. فرفض النبي وقال: ما أعطيكم الأمان. وأرسلوا ثانيةً من يفاوض النبي على الصلح، ويأبى الرسول إلا أن يسلموا له قتلة المسلم، أو اقتحام الحصن وقتل من فيه.

ويستبد الخوف بالنفوس لتكون مهيئةً لقبول أي عرض يطلبه الرسول منهم، ويرسلون إليه مرةً ثالثةً، ويقبل النبي بعدم مهاجمة الحصن تحت شرط قاس.

قال النبي: تنزلون عند حكمي. ويصعد كبيرهم رفاعة بن التابوت فوق الحصن ويصيح: يا محمد ننزل عند حكمك فينا بأمر التوراة.

وحكم فيهم رسول الله ﷺ بالتوراة وبالقرآن الذي قال فيهم: ﴿**الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ (الأنفال: ٥٦ - ٥٨).

وكان النزول لحكم الرسول يعني الاستسلام دون قيد أو شرط، وانتهى أمر بني قينقاع في تلك الواقعة من العام الثاني للهجرة، بأن أجلاهم الرسول عن المدينة، وتوجه ركب الشر نحو خيبر ليبدأ فيها التجمع والاحتشاد اليهودي.

وتركت تلك الحادثة أصداء مدوية في المدينة أنذرت يهود قريظة والنضير عواقب العبث بالعهود والمواثيق، أولئك الذين خشوا التدخل لإنقاذ إخوانهم بني قينقاع بعد أن أيقنوا بعدم جدوى الصدام مع المسلمين، وآثروا التريث والانتظار والتقاط الفرص.

ضربة مؤلمة ليهود بني النضير

وازداد سعار اليهود وركبهم التوتر والقلق وصاروا في حيرة من أمر هذا الرسول وأتباعه حملة الدين الجديد، فلا الجدل ولا المماحكات الكلامية والفكرية أجدت معهم نفعًا، ولا حتى التصدي بالقوة لهم حقق نفعًا، فلم يبق إلا وسيلة واحدة لم يجربوها، محاولة اغتيال النبي ﷺ، علهم بذلك ينهون أمر الإسلام حين يوجهون ضربةً للرأس الكبيرة.

ففي العام الرابع الهجري كانت أحداث هذه الواقعة حين نجا الرسول ﷺ من محاولة لاغتياله، بعد أن أرادوا إلقاء حجر ضخم عليه وهو جالس أسفل مرتفع قد كمنوا له فيه، فأخبره الوحي فقام فجأةً، فتهاوى الحجر ولم يصبه بأذى.

فأدرك الرسول أن الأمر بات يعوزه الحسم سريعًا، فسار إليهم في جيش من المسلمين، وحاصر الحي الذي يقطنه بنو النضير وكذا حصنهم المنيع، وبعد مناوشات منهم لصرف المسلمين عن عزمهم، وبعد إصرار من الرسول على استدامة حصارهم حتى رأوا الموت بأعينهم، نزلوا لحكم الرسول بالجلاء عن المدينة ومغادرتها.

وشرعوا في أخذ الأثاث والمتاع، وحملت الإبل فوق طاقتها، ولم يتركوا شيئًا، حتى الأبواب الخشبية ونوافذ الدور لم يتركوها.

وخرجوا من المدينة خروجًا لا رجعة فيه في يوم من أيام ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، خرجوا في مظاهرة غنت فيها النساء وضربن بالدفوف وهم في طريقهم إلى خيبر، ليجتمع شملهم مع أبناء عمومتهم من يهود الشام والجزيرة، وبني قينقاع الذين سبقوهم إلى نفس المحط.

خرجوا مطرودين من يثرب شر طردة، وكان ساداتهم وراء الأمر الذي صدر للنساء المغنيات، والقيان العازفات في محاولة منهم لإيهام العرب على طول الطريق، إنما خرجوا طواعيةً لا كرهًا، أعزاء أسياد، كما هو حالهم في طمس الحقائق، أرادوا إصراف الناس عن الحقيقة المرة في طردهم من حصونهم وتخريبهم دورهم بأيدهم، وتركهم سلاحهم للمسلمين.

وأمست حصون بني النضير خرابًا، دفعهم الحقد الشديد إلى تخريب ما لم تستطع الإبل حمله كي لا يتركوا للمسلمين شيئًا ذا نفع. هدموا ما استطاعوا تهديمه من الدور، فلا تصلح للسكن بعدهم. طمروا آبار الماء ولوثوا ما لم يسعفهم الوقت في طمره، ألقوا بالحجارة الكبيرة على الطرقات المؤدية والخارجة من الحي، وصارحي بن النضير الذي كان يعج بالحياة، ويزخر بالعمران مرتعًا للكلاب الضالة، وأسراب الطيور الشاردة التي تحط على البقايا.

وسمعت بنو قريظة بما حل على بني النضير، فكبتت حنقها وغيظها، وأضمرت انتقامًا من المسلمين، بيد أنهم أجبن من أن يعلنوا مصابهم الجلل لما سمعوا بالكارثة التي حلت بأبناء العمومة.

وقد أنزل الله في تلك الواقعة التي حملت من الدروس والعبر ما حملته، أنزل سورة الحشر بأكملها، يقول الله سبحانه وتعالى فيها عن خبر يهود بني النضير: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ**

فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحشر: ١ - ٦).

بنو قريظة لم تتعلم الدرس

لم يكن يهود بني قريظة أعقل ولا أحكم رأيًا من أبناء عمومتهم قينقاع والنضير؛ فلم يتعلموا الدرس، ولم يتعظوا بما حل بالآخرين، وكأن الكراهية الشديدة للمسلمين وللرسول ﷺ قد أعمتا بصيرتهم إن كانت لهم بصيرة.

فبنو قريظة إحدى طوائف اليهود الثلاثة الذين كانوا يسكنون حول المدينة، ووادعهم رسول الله ﷺ، ونقضوا عهدهم واحدةً بعد واحدة، وصدق قول الله فيهم: ﴿**أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾ (البقرة: ١٠٠)، فاليهود إلى اليوم لا يوفون بعهد. ولا يلتزمون بميثاق، فكان النكث والغدر وصفًا لازمًا لهم إلا من رحم ربي منهم.

فبنو قريظة نقضوا عهدهم، وانضموا إلى معسكر المشركين المحاصرين للمدينة، أولئك الذين جاءوا يوم الأحزاب لاستئصال شأفة الرسول والمؤمنين، ولكن خيب الله مسعاهم فهذا وجب قتالهم وتعين قتلهم أو إجلاؤهم عن البلاد وإخراجهم منها. وهو ما حدث في آخر ذي القعدة من السنة الخامسة من الهجرة حين فرغ الرسول من الأحزاب بعد أن نصره الله حين قيض له الريح التي شتتت شمل الأحزاب، وفضت جمعهم، وأجلتهم عن المدينة، وعادت المدينة آمنةً لم يمسسها سوء.

ولم يلبث المسلمون أن وضعوا السلاح حتى آتاهم أمر الرسول بالتحرك، وتوجهوا صوب بني قريظة لضرب بؤرة الغدر الباقية في يثرب، وتخليص الناس من هذا الجسم السرطاني، وسار جيش المسلمين، وقطع طريقه صوب غايته، حتى نزلوا في أقرب الأماكن

لحصون قريظة عند بئر من آبارهم يُسَمى (أنا) عسكر عنده الرسول والمسلمون، وانتظر حتى يكتمل باقي الجمع الذي تأخر في الطريق، وما إن حل العشاء حتى كان حشد المسلمين في أعلى درجات الاستنفار والتربص بحصون بني قريظة.

وترى بنو قريظة جموع المسلمين تقترب من حصونهم، فيدخلون الحصون، ومن خلف كوات الأبواب ينظرون في قلق، ويجتمع داخل الحصن الرئيسي الكبير ساداتهم، وأشرافهم وأحبارهم، فهم حيي بن أخطب الذي آثر المكوث معهم لإظهار حسن نواياه لهم، وكأنما ساقه الله لذلك ليقع في المصيدة مع من أشار عليهم برأيه المشؤوم، وداخل حصن القيادة الذي يسوده الذعر والهلع يصدر كعب بن أسد سيدهم أمره بإحكام إغلاق الأبواب، وباعتلاء الرماة للأبراج العلوية تحسبًا للهجوم المرتقب.

الموقف عسير عليهم، فهم يعرفون جرمهم، وها قد أتت عواقبه، نعم؛ هم سمعوا بانسحاب الأحزاب، لكنهم لم يتوقعوا قدوم الرسول وأصحابه بهذه السرعة، ويضرب الرسول ﷺ الحصار على كامل حصونهم.

استسلمت (بنو قريظة) في اليوم التاسع عشرة من الحصار على إثر هذه الهجمة المباغتة الشرسة من كتيبة فرسان المسلمين، ولحقت بهم هزيمة نكراء، وتم إجلائهم عن المدينة، بعد أخذ القصاص من مدبري الخيانة: رؤوس بني قريظة.

وهذا هو حال بني إسرائيل كما ذكر القرآن وصفهم بالغدر وحنث العهود، فلا يعاهدون عهدًا إلا نقضوه، ولا يسالمهم قوم إلا غدروا بهم، ولا يحسن إليهم أحد إلا أساءوا إليه، ويرون ذلك حقًّا من حقوقهم، وفرضًا من فروض دينهم كما قال تعالى: ﴿**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (البقرة: ١٠٠)، وقال تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾ (المائدة: ١٣)، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ**﴾ (الأنفال: ٥٦).

الضربة الحاسمة لليهود في خيبر

خلت المدينة أو كادت من قبائل يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، انحازوا بعد مغادرتهم يثرب إلى أبناء عمومتهم في خيبر، ولم يبق من اليهود في المدينة غير قلة من يهود بني النجار وبني زريق وبني ثعلبة، ممن لم يظاهروا أبناء عمومتهم من الطوائف الثلاث، ولم يساندوهم في كيد كادوه للرسول، وآثر هؤلاء المكوث فيها خاضعين لسلطان المسلمين مكفولةً لهم حقوقهم وحريتهم، على أن يكون مصيرهم كمصير من طُرِدوا وشُرِّدوا وقُتِّلوا من اليهود جراء خيانتهم العهود.

وكان هناك نفر قليل من بني قينقاع مندسين داخلهم، بعد أن خذلوا قومهم يوم أجلاهم الرسول عن يثرب، فضل هؤلاء البقاء فيها على الخروج. هكذا كان حالهم حتى السنة السابعة للهجرة. وفي المحرم من تلك السنة، أمر النبي ﷺ بالاستعداد والتأهب لدق أعتى حصون الشر في الجزيرة، والتي أجل أمرها في الملاحقة والقصاص حتى يأتيه الوحي من الله في شأنها.

إنها (خيبر) رأس كل مصيبة حلت أو سوف تحل بالمسلمين، تلك المدينة المحصنة التي حوت بداخلها شرار الناس وأعداء الله - اليهود - هم من حزبوا الأحزاب، ودبروا لكل من يعادي الرسول، دبروا له الحيلة الذكية، والخطة المحكمة للقضاء عليه.

ولم يسمح النبي ﷺ للمنافقين وضعفاء الإيمان الذين تخلفوا في الحديبية بالخروج معه، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الفتح: ١٥).

وفي خيبر موطن الدسائس والمؤامرات، ومصدر الشرارة الأولى لتحزيب الأحزاب يصل الخبر، لكن من هم الذين أوصلوه؟ هل جاء عن طريق أبناء عمومتهم ممن أبقاهم الرسول في يثرب لعدم تعرضهم للمسلمين وعدم مشاركتهم لقومهم في غدر وخيانة؟

نعم؛ من هؤلاء النفر القليل وصل الخبر: خبر استعداد الرسول!

لكن لا بد من الالتفات إلى الدعوة العلنية التي لم يجعلها الرسول سريةً في التحرك لخيبر على غير عادته إذا هم بالغزو، ذلك أن الله قد وعده بفتحها، فأيقن الرسول ﷺ أنها ستُفْتَح بلا ريب، وأخذ حذره في أمر غير الكتمان، أرسل عيونه لقطع الطريق على من يخرج من يثرب متوجهًا إلى خيبر التي تقع على بعد ثمانين ميلًا من المدينة في جهة الشمال الشرقي لإخبار اليهود بأمر المسلمين القادمين. وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة بعد أن هدأت العداوة بين المسلمين وبين قريش وعُقِد بينهما صلح الحديبية.

وحاصر المسلمون خيبر، وامتد الحصار وطال وأخذت حصون اليهود بها تتساقط بسهولة أو بصعوبة في يد المسلمين، ولم يجد اليهود بدًّا من أن يستسلموا، واتفق معهم المسلمون على الاستسلام، وأصبح لليهود شطر الزرع والثمار نظير عملهم، كما صار للمسلمين الإشراف على اليهود، حتى لا يعودوا إلى ألوان الغدر مرةً أخرى.

ولما تهاوت حصون خيبر طلب يهود فدك الصلح، فصالحهم الرسول على نصف الثمر ونصف الأرض، أما يهود وادي القرى وتيماء فقد امتنعا وقاتلا فهزمهما المسلمون، ثم تركوهما على نظام خيبر، وانكسرت بذلك شوكة اليهود، وإن كانت الشوكة لم تزل نهائيًّا وبقيت كليلةً حينًا، ومدميةً كلما وجدت سبيلًا إلى الإيذاء.

ولم يغب عن بال الرسول خطورة بقاء اليهود خلف هذه الوفود، فذاك وضع لا تأمن فيه الدعوة ظهرها وصارت بقايا اليهود في الجزيرة تؤرق الرسول كلما غالبه الأمل في تمدد

الدعوة إلى الخارج وفي عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب امتد الإسلام وتجاوز أرض خيبر في طريقه إلى فارس والروم.

وأصبح يهود خيبر في ظهر المسلمين، فخاف عمر بن الخطاب خطرهم، وخشي أن يضربوا المسلمين من الخلف كما فعلوا في السابق، فقدم لهم العروض السخية، ودفع أصحاب رسول الله مما كان معهم من مغانم الغزوات ما يدخرونه، دفعهم لشراء الأراضي من اليهود، وأغروهم بالمال حتى على ما يملكون من متاع.

واختار عمر وقتًا مناسبًا فيه اليهود يريدون الخلاص والخروج من وسط المسلمين بعد أن بات في يقينهم اليأس من أي محاولة لضرب هذا الدين، وليس أمامهم إلا الابتعاد عنه، فقد صار الإسلام خطرًا على بقائهم.

واستطاع عمر بهذه الحيلة التدريجية إخراج اليهود أرسالًا، وعلى فترات من جزيرة العرب كلها، ولم يبق منهم إلا ما لا تلحظه الأعين، ويغفله ولا يلمحه التاريخ.

لكن اليهود لم يستسلموا بعد لتلك النتائج المخيبة للآمال، فإن كانوا قد فشلوا في الحرب الفكرية والجدلية والتشكيك في أول الأمر في المدينة مع المسلمين، وكذلك وإن كانوا هُزِموا في الصدام العسكري مع المسلمين، إلا أن الإصرار في عداوة هذا الدين يبقى هو المحرك الرئيس لإعادة جولات الصراع في أشكال أخرى.

فلم يبق أمامهم سوى الحرب النفسية، في اختراق المسلمين وشق صفوفهم، ولكن لن يتسنى لهم فعل ذلك وحدهم، فوجدوا حليفًا قديمًا أصابه وتر وهزيمة هو الآخر من المسلمين، إنهم الفرس عبدة النار المجوس، حلفاء الأمس البعيد منذ أيام قورش الذي أعادهم من السبي البابلي، ولنا فيها وقفة لأهميها كونها توضح العلاقة القديمة بين الفرس واليهود.

التحالف اليهودي الفارسي القديم

في عام (٦٠٨ ق.م) زحف فرعون مصر على مملكة يهوذا، فاحتلها واستمر في زحفه فاحتل مملكة إسرائيل التي كانت قد سقطت تحت سلطة الآشوريين. وقد ثار لذلك ملك بابل نبوخذ نصر "بختنصر" الذي آل له السلطان على آشور وبابل، وزحف على فلسطين فهزم فرعون مصر، واستعاد مملكة إسرائيل.

ثم احتل مملكة يهوذا، وقتل "صدقيا بن يواقيم" آخر ملوك يهوذا، ونهب أورشليم، ودمرها، ودمر معبد سليمان، وسبى أكثر السكان إلى بابل، وفر بعضهم إلى مصر وغيرها من الأقطار، وأقام "بختنصر" على فلسطين واليًا من قبله، وانتهى بذلك ملك اليهود بفلسطين، ويُعْرَف هذا بالأسر البابلي، وهذا هو التدمير الأول للمدينة والمعبد.

ولم يدم الحال طويلًا هكذا، فقد أخذ النفوذ البابلي يضعف ويقل حجم سيطرته، بعد أن انقضى خمسون عامًا على انتصارهم وتدميرهم لمملكة "يهوذا".

ولاحت في الأفق بوادر قوى جديدة كانت قد ظهرت في ذلك الوقت في الشرق، وكان مقدرًا لها أن ترث ملك كل من سبقها في الشرق الأوسط، ابتداءً من المصريين، وانتهاءً بالآشوريين والبابليين والحيثيين، والكلدانيين، والعبرانيين، وتلك هي قوة فارس تحت زعامة ملكها (قورش) الذي استطاع أن يمد طموحه إلى أبعد من ذلك، وخصوصًا بعد أن سقطت مدينة بابل (عام ٥٣٩ ق.م) في قبضته، فقد أصبح السيد المتوج لآسيا الصغرى، دون أن ينازعه أحد في السيطرة عليها.

وتحولت الدول التي كانت تسيطر عليها بابل إلى سلطان الفرس، وكان أهمها فلسطين التي أصبحت ولايةً خاضعةً للملك قورش، وكانت (الزرادشتية) هي ديانة الفرس التي كانوا يدينون بها إبان غزوهم (بابل)، وقد تأثر بها اليهود كثيرًا، وأخذوا منها ما يناسب اتجاهاتهم الدينية والفكرية بعد أن أطلق الفرس على بني إسرائيل اسم اليهود، وأطلقوا على ديانتهم

اسم اليهودية، ومن ذلك التاريخ، أصبحت كلمة "اليهود" تعني من اعتنق اليهودية ولو لم يكن من بني إسرائيل.

وقد عامل الفرس اليهود بطريقة ودية وسمحة بعد أن وجدوا اليهود يأخذون من عقائدهم وأفكارهم الدينية ما يجعلهم يشعرون بأنهم قريبين منهم في هذه النواحي، وكانت هذه الأسباب وراء قرار "قورش" بالسماح لهم بالعودة إلى فلسطين، ومعاودة حياتهم فيها بحرية وأمان في ظل سلطانه، وأعاد اليهود بناء المدينة المقدسة، وأقاموا بداخلها معبدًا صغيرًا يقع في نفس مكان الهيكل القديم، وتم ذلك بتصريح من قورش.

تلك هي علاقة الود والصفاء القديمة بين الفرس واليهود. ولسوف نرى عودة التلاحم فيما بينهما لضرب الإسلام من خلال إنشاء مذهب التشيع لتنشطر الأمة إلى فرقتين يتصارعا، ومن ثم تكون تلك هي البداية لتتفرع منها الفرق والطوائف العديدة كما هو حاصل الآن، كي تغرق الأمة في أتون النزاع الداخلي كما خطط لذلك اليهود والفرس منذ قرون طويلة.

الفرس وغرس بذور التشيع

لقد عول اليهود على عبدة النار المجوس - مملكة فارس العتيدة - علها تسقط لهم دولة الإسلام التي شردتهم من مكامنهم في جزيرة العرب. وبدأت تلوح في الأفق نذر المواجهة بين العرب المسلمين والفرس، فكانت أرض السواد هي محط اللقاء بين العرب المسلمين الفاتحين، وجحافل الفرس.

أرض السواد كما كان يُطْلَق عليها قديمًا هي في الحقيقة أرض العراق، العراق الحضارة والتاريخ الذي وقع في قبضة الفرس، حينما سقطت مملكة الكلدانيين سنة ٥٣٧ ق.م، ودان للغاصبين الفرس الأمر، وصارت أرض السواد (العراق) مرتعًا للمجوس عبدة النار؛ الذين عبثوا بهوية البلاد، فطمسوا معالمها الحضارية، واستبدلوها بخرافات

الزرادشتية، وعقائد شاذة طيلة عشرة قرون من العسف والجور، حتى أتت يد الفاتحين المسلمين وخلصتهم من شرور المجوس الفرس عام ٦٣٣م.

إنها الصدمة، بل هي الصاعقة التي صعقت عبدة النار المجوس وأدخلتهم في الإسلام، ولعلنا نقف على تلك الحادثة بكثير من التأمل، وذلك عن قصد منا؛ لأن ما حدث للفرس، وفي عهد عمر تحديدًا هو السبب الرئيس الذي جعل التحالف اليهودي الفارسي يضرب ضربته في جسد الأمة، وهو داخلها، وذلك حين ينشئ مذهب (التشيع).

ومن ثم يتدرج حتى يتحول المذهب من فكرة دينية تحمل حبًّا وولاءً لآل بيت الرسول ﷺ - مع مرور الزمن - إلى عقيدة سياسية تحت غطاء ديني تدعمها القومية الفارسية لاسترداد مكانتهم المهزومة والتطلع للتغلغل والتوسع في الأقطار العربية.

من هنا كان الحقد الفارسي اليهودي منصبًا على الدين الجديد - الإسلام - فهذا عهد زالت فيه سطوة اليهود في جزيرة العرب، ولكن مصيبة الفرس كانت فادحةً، فقد زالت دولتهم نهائيًّا، وتحولوا في العهد الجديد إلى أتباع وموالي، وكان منهم السبايا والأرقاء والخدم بعد أن كانوا ملوكًا وأسيادًا.

من هنا كان العداء الدفين، فالإسلام أتى بمنهج تصادم مع إرث الفرس العقائدي، فمزق جموعهم، وكسر شوكتهم، وهدم ملوكيتهم، فنقم أهل إيران على هذا الدين، فوجد اليهود في هؤلاء الفرس تربةً خصبةً لغرس بذور الفتنة في المسلمين.

وكان من الاتفاقات أن ابنة (يزدجرد ملك فارس) "شهربانو" زُوِّجت من الحسين بن علي بعدما جاءت مع الأسرى الإيرانيين، فلما دبر اليهود لعثمان بن عفان وتترسوا بعلي بن أبي طالب بدون إذن منه ومعرفة، فادعوا الولاية والخلافة لعلي وأولاده ليؤسسوا شرخًا في الدين الواحد. فرأوا أن الدم الذي يجري في عروق علي بن الحسين الملقب بزين

العابدين وفي أولاده دم فارسي من قبل أمه "شهربانو ابنة يزدجرد" ملك فارس من سلالة الساسانيين المقدسين عندهم.

ولقد تبنى الفرس المذهب الشيعي لما يحقق لهم مظلةً دينيةً معتمدةً على رمز الحسين حفيد الرسول محمد ﷺ وبانتمائه الشريف يتمكنون من دعم نظرية المذهب الشيعي، ويأتي أيضًا انسجامًا مع علي زين العابدين ابن الحسين والذي ينتسب لجده (يزدجرد) ملك فارس.

وبهذين القطبين سيتمكن الفرس من خلق رسالة دينية جديدة تستمد طقوسها من الدين الإسلامي وتضيف إليه من عقائد المجوسية بتقديس وتأليه ملوك فارس حين ينسحب الأمر كذلك إلى تقديس وتأليه الحسين وابنه زين العابدين.

ولعب الفرس بالمذهب الشيعي حين اختلقوا حالة المظلومية، وما حدث في موقعة كربلاء والتي أدت إلى مقتل الحسين، ومن تلك الحادثة انطلق خطابهم الديني، وجعلوا من مأساة كربلاء محورًا يدور في فلكه الخطاب الشيعي، وبالغوا في تقديس الحسين إلى درجة التأليه، وأن المنتمي للمذهب الشيعي سوف يغفر الله له ذنوبه ويتوب عليه، ويسكنه مكانًا عاليًا في جنات النعيم، خاصةً إذا زار قبر الحسين، فتلقى الأميون والجهلة بالتسليم تلك الدعوة، وأصبحت هي ملاذهم الوحيد في حياتهم الدنيا وفي الآخرة.

وأمكنهم بتلك الخرافات والأباطيل - دهاة الفرس - من استقطاب عوام الناس من البسطاء، إذ سهلوا على الأتباع تكاليف العبادات والالتزام بتطبيقها مناسكًا وسلوكًا، فإنه بمجرد زيارة قبر الحسين ترتفع عن المرء التكاليف، ويغفر الله له ذنوبه مهما ترك من فرائض، ومهما فعل من آثام.

ويبقى للفرس من يتذرعون به: إنه علي بن زين العابدين بن الحسين حفيد ملك المجوس من الأم جراء زواج الحسين جده من شهربانو بنت يزدجرد ملك فارس، حيث

كانت ضمن سبايا المسلمين بعد انكسار جيش الفرس، وقد ساهمت تلك القرابة في تعاطف علماء المجوس مع آل حسين جميعهم ليكون الإعداد التام لخطاب ديني يأخذ خطًّا مغايرًا عن رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ.

وهكذا استطاع الفريقان - اليهود والمجوس - صرف المسلمين عن القرآن عبر روايات مكذوبة ومسمومه تنفيذًا لمخطط شرير بغية الانتقام من العرب حملة الرسالة الإسلامية، ودفعهم نحو حلقة مفرغة يدورون حول أنفسهم في أتون من الروايات المختلقة، يتصارعون عليها ويضربون رقاب بعضهم البعض من جرائها، وكل حزب فيهم يتبارى في تشويه الرسالة لإبعاد الناس عن صحيحها.

وإذا ما رأى الآخرون ممن يناديهم الإسلام بالدخول فيه، إذا ما رأوا القتل والتدمير وتهاوي الأخلاق والسلوك وكل ذلك باسم الإسلام، حتمًا سيبتعدون عنه ولن يفكروا أبدًا في اعتناقه، فكم يسيئ هؤلاء للإسلام السمح.

وكما تأسس المذهب الشيعي كان لا بد من تأسيس مذهب يناقضه ويناصبه العداء، حتى اشتعل أوار الصراع على أشده، فتم إنشاء المذهب السني، والذي تم تدشينه في العصر العباسي الأول (٧٥٠ - ٨٤٧م) وكان رد فعله عنيفًا إزاء مخالفيه، فصار التكفير ديدنه الرئيس، والقتل وسيلته في الإقناع، وخطاب الكراهية ملمحه في دعوته، وتعددت طوائفه وتنوعت مشاربها، وصار بمرور الزمان لديه مرجعيات مختلفة كما هو بيانها:

(١) الأوزاعية/ (٢) الأحناف/ (٣) المالكية/ (٤) الشافعية/ (٥) الحنابلة/ (٦) الأشاعرة/ (٧) الماتردية/ (٨) الظاهرية/ (٩) الوهابية/ (١٠) جماعة الإخوان/ (١١) أهل الحديث/ (١٢) التبليغ والدعوة/ (١٣) الجمعية الشرعية/ (١٤) أنصار السنة/ (١٥) الصوفية/ (١٦) حزب التحرير/ (١٧) التكفير والهجرة/ (١٨) جند الصحابة ...

والطائفتان السنة والشيعة كلاهما اعتمدتا في عقائديهما على روايات ضالة، وكلاهما آمن بمرجعيات متضادة وقد أطلق عليهما وعلى رؤوس من تفرع من جماعات وفرق، أطلق عليهم علماء دين وشيوخ الإسلام، وقد أسسوا لآراء ومعتقدات تباعد شرع الله كل البعد، وتجافي صريح الإسلام مجافاة فجة مقيتة.

والطائفتان تم استدراجهما إلى نفق مظلم نزفتا فيه الدماء أنهارًا، واستهلكتا فيه الطاقات المادية والاقتصادية، فضلًا عن نشر السنة والشيعة الكراهية والحقد بعد أن حادتا عن الطريق المستقيم، وبعد أن هجرتا القرآن الكريم، وسار خلفهما الأتباع بالملايين ناحية الحروب والاقتتال والتربص بين أبناء يُفْتَرض فيهم أنهم أبناء أمة واحدة بمرجعية واحدة، ولما تركت تلك المرجعية لغيرها من المرجعيات حدث ما نراه اليوم من فرقة وشقاق وذاك هو مأزق الأمة الآن.

لذا توجب على المثقفين والعلماء من كلا الطرفين تشكيل مجلس موحد يعتمد القرآن المرجع الوحيد في تصحيح المفاهيم الخاطئة، تلك التي استقرت في أذهان الناس قرونًا طويلةً وقد آن الأوان لتصحيح المسيرة باتجاه الشريعة القرآنية، والاتفاق على إمام واحد للمسلمين جميعًا، ألا وهو سيدنا محمد ﷺ، وعدم الالتفات لكافة الروايات المنقولة من المنتمين للسنة أوالمنتمين للشيعة. فكل الروايات من دون استثناء قد اسْتُحْدِثت لهدم رسالة الإسلام وخلق الفتنة بين المسلمين جميعًا.

(١٨) الانقلاب على الكتاب

ما نشهده اليوم من أحداث جسام تدور حولنا في عالمنا من اقتتال وفرقة وتناحر وتأخر عن ركب التقدم وتقهقر للخلف، وضياع أوطان عربية وإسلامية، كل هذا الذي نراه وللأسف يحدث تحت رايات ادعت تمثيل الإسلام، أو نادت بعودة الإسلام بما تصوروا أنه الإسلام، والإسلام براء من هذه الشنائع، وبراء من تلك الأفكار المنحرفة المضللة التي تدمر الإسلام باسم الإسلام.

كل هذا الكم من الخراب والضياع لم يكن وليد صدفة أو جاء فجأةً، أو حتى داهمنا منذ فترة وجيزة، بل إنه وليد تراكم أحداث تاريخية، كانت لها بداية وتسلسلت في تعاقب وتواصل حتى صار المشهد داميًا كما نراه اليوم.

نعم لقد بدأ هذا الأمر منذ وفاته ﷺ، بدأ لما تداخل أمر الدنيا السياسة والصراع على السلطة مع أمر الدين الذي أتى به النبي ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

لقد بدأ هذا الأمر الجلل الذي استفحلت تبعاتها على طول القرون مدًا متواصلًا حتى صار حالنا كما نرى من الضياع والوهن، وتكالب الأمم علينا بعدما انكفأنا على أنفسنا نقاتل بعضنا البعض، ويكفر بعضنا بعضًا.

بدأ هذا الأمر حين بدأ الأولون بالتنازع حول أحقية من له أمر الدين والدنيا، وهذا ما لم يحدث قط في عهد الرسول ﷺ، لم يحدث في عهده البتة اقتتال بين المسلمين، لكنه حدث بعد وفاته رغم ما حذر به القرآن وشدد عليه، إذ قال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وكأنما تحاكي الآية الكريمة ما سوف يحل بالمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ: تحاكي حال انقلابهم على أعقابهم، وهذا ما حدث بالفعل من صراع على السلطة أدى لنشوب الاقتتال بين صحابة رسول الله ﷺ، فسقط منهم في ساحات الطحان الكثيرون، وامتد هذا الأمر لمن خلفهم من تابعيهم وتابعي تابعيهم، وتواصل القتال بضراوة تحت شعارات إسلامية تباينت واختلفت، وتتابع هذا الأمر من دون هوادة.

هذا الأمر الذي كان منشؤه وأصله أتى من الانقلاب على الكتاب بعد وفاته ﷺ، ولو أنهم استمسكوا بصريح ما جاء به من دون إقحام النصوص الإلهية وإخضاعها للواقع والذي يفترض له أن يتغير وفق قاعدة الثبات القرآنية، لو أنهم فعلوا منذ البداية ما كان هذا المنزلق ليبدأ معهم ويصل إلينا، هذا المنزلق الخطير الذي فيه تمزق شمل المسلمين إثر أول صدام مع الواقع السياسي.

وقد حذرنا الله من الفرقة والتشرذم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

وحثنا سبحانه وتعالى على التوحد والتعاضد بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ونبه الله تعالى رسوله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢).

ومن سياق الآيات ينجلي لنا المعنى المراد، أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الأمر الجامع الموحد للمسلمين، فإذا ضربت الفرقة والتناحر صفوفهم وأذعنوا لها رضاءً وتسليمًا فهذا ليس مراد الله، ولا هو ما من أجله كان القرآن هاديًا للناس، بل إن الإسلام الحقيقي لا الإسلام المدعى المشوه.

الإسلام الحقيقي ضرب أروع الأمثلة في رأب الصدع، وإزالة أسباب الشقاق، وأحدث التلاحم والتآلف بين القلوب كما حدث في المآخاة بين المهاجرين والأنصار، فقال تعالى: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (الأنفال: ٦٣).

وإذا بنا اليوم نرى من ينتسبون للإسلام وهم أكثر الناس إساءةً له، نرى تلك الجماعات الإرهابية وقد أعلنوا القتل واستباحوا الدماء والأعراض وهم يرفعون شعارات كتب عليها (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ولن تغني عنهم تلك الشعارات الزائفة شيئًا يوم القيامة، فقد حكم الله عليهم بأنهم لم يتبعوا رسالة الإسلام، وابتعدوا عن منهجية القرآن الكريم، ويصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (المجادلة: ١٩).

إن المسلمين في أمس الحاجة اليوم للتوحد خلف المرجعية الأوحد لهم القرآن الكريم لا أن يكون حالهم متواصلًا مع هذا الإرث العقيم من المذاهب الدينية وما أكثرها وتنوعها، لكل مذهب منهجه ومرجعيته الخاصة به، وهو ما أسس قديمًا لشيوع وانتشار الفرق الدينية المتناحرة، وتوزعت مسمياتها على هذا النحو:

(الخوارج/ المعتزلة/ الشيعة/ القدرية/ الأزارقة/ الكيسانية/ الباطنية/ النصيرية/ العلوية/ الحشاشون/ الإسحاقية/ السليمانية/ القاديانية/ الجبرية/ الجهمية/

المرجئة/ الإباضية / الجعفرية/ الإسماعيلية/ الزيدية/ القرامطة/ الجارودية/ الصالحية/ الدروز/ البهائية).

وانقسم أهل السنة إلى مذاهب أربعة رئيسية (**الأحناف/ المالكية/ الشافعية/ الحنابلة**)، فيما لم يرد نص قرآني باتباعهم أو الاحتكام إلى فتواهم، ذلك أن المسلمين ليسوا ملزمين باتباع أي منهم، أو الانتماء إلى أي فرقة أو مذهب من تلك المسميات.

فالله سبحانه وتعالى أمرنا باتباع قرآنه وما ورد فيه من تشريعات، وما عمل به رسول الله ﷺ - وهو إمام المسلمين الأوحد - وأن نتبع منهجه القرآني، وعلى أصحاب العلم إعداد تشريع موحد مؤسس على الشريعة الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم.

إن تشرذم المسلمين في الماضي أسس لنشوء تشرذم جديد في عصور تتابعت وصولًا لعصرنا الحاضر، حيث نشأت فرق مستحدثة عُرِف منها الجماعات التكفيرية كالقاعدة وداعش والنصرة والأخوان المسلمين والسلفية الجهادية وغيرها مما راجت بأسمائهم القنوات الإخبارية، وشبكات التواصل الاجتماعي، وكلهم يكفرون ويحاربون من لا يلتحق بهم، وهم يستبيحون دماء الأبرياء.

والجامع بين الفرق والملل كلها أنهم يدعون انتماءهم للإسلام لكنهم يرفضون الالتزام بكتاب الله وشريعته السمحاء، ويعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية وأنهم حماة الإسلام ودعاته. وتلك هي أبرز الفرق ومنها يتفرع ما لم تلحظه العين:

(الوهابية/ جماعة الإخوان المسلمين/ السلفية الجهادية/ حزب الدعوة/ التكفيروالهجرة/ جماعة التبليغ/ حزب التحرير/ القاعدة/ داعش/ جبهة النصرة).

ولكل فرقة قيادتها السياسية الخاصة بها، وكل فرقة منها ابتدعت أفكارًا ومذاهب باسم الإسلام، وأوهموا تابعيهم بالأمل في جنات وحور عين، وغرزوا في عقولهم بأنهم هم القدوة للإسلام، وأنهم هم وحدهم المصلحون. ولذا فهم المكلفون من المولى عز وجل بتطبيق شرع الله كما فهموه وضللوا تابعيهم بأنهم يسيرون على الطريق المستقيم.

وكل فرقة منهم تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، وكل فرقة منها تنصب من نفسها حاميًا للدين الإسلامي، فتفرقت بهم السبل وأصبح كل حزب بما لديهم فرحون بأفكار تستهدف النيل من الدين الإسلامي، وتخلق حالةً دائمةً من الاقتتال بين المسلمين، إذ تحولوا إلى أدوات شريرة استغلها المستعمرون وأعداء الإسلام فتم تسخيرهم في خدمة مصالحهم الدنيئة وراحوا يتقاتلون فيما بينهم.

أولئك المستعمرون الغزاة أمثال بنو إسرائيل وغيرهم ممن يضمرون العداوة والبغضاء للمسلمين فوظفوهم في خدمة مآربهم، لإنهاك المنطقة في الاقتتال الداخلي بغية هدم الأوطان، وتهديد أمن وسلامة الشعوب العربية تحقيقا لأمن إسرائيل وللحفاظ على مصالحهم البترولية في الوطن العربي وتحقيقًا لتأسيس دولة إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات.

لقد حذر الله المسلمين الذين تفرقوا أحزابًا وشيعًا وفرقًا مختلفةً، وهم يحملون مسميات متعددةً واتبعوا أولياء من دون الله، حذرهم بأن رسول الله بريء منهم فقد خالفوا أمر الله في الاعتصام بحبل الله، والذي هو القرآن الكريم، ولم يتبعوا كتاب الله وما أمرهم به بقوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ٣).

إنه الانقلاب على كتاب الله وما جاء فيه من أحكام تنظم العلاقة المثلى بين الله وبين عباده فيما يتعلق بالعقيدة والإيمان به، نعم؛ إنه الانقلاب على الكتاب الكريم والذي أتى من خلال محورين: **المحور الأول** سياسي بامتياز، وهو إقحام الدين في أمور السياسة والحكم؛ الأمر الذي أوجد النزاع والشقاق وظهور الطوائف والفرق المتناحرة، **والمحور الثاني** عبر تدوين الروايات الملفقة والمدسوسة لصرف المسلمين عن طوق نجاتهم القرآن الكريم.

هجر القرآن

لقد علم الله سبحانه وتعالى بعلمه الأزلي أن عباده من المسلمين سوف يهجرون القرآن، وسيؤدي ابتعادهم عن كتاب الله إلى تفرقهم وتشرذمهم، بل حدوث التصادم بين الفرق المختلفة، تلك التي اتبعت كل فرقة منهم مذهبًا أو عقيدة صاغها مفهوم بشري ونقلها رواة، من قصص لا تتوافق مع القرآن الكريم ونسبوها إلى رسول الله ﷺ زورًا وظلمًا، فاختلت بذلك المفاهيم وأضرت بمقاصد القرآن الكريم.

مع أن الله لم يمنح أيًّا من رسله في مختلف العصور حق التشريع، ولئن حدث ذلك فسيحدث تصادمًا بين تشريع الخالق رب السماوات والأرض العليم الخبير وبين الرسل والأنبياء الذين هم بعض من خلقه، ولا يملكون حق التشريع، إنما أمرهم سبحانه بحمل رسالته للناس كما هي دون إضافة أو حذف أو تعديل، لذلك:

١) أمرنا الله سبحانه بالوحدة وعدم التفرق بقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٣)، فحبل الله هو القرآن، والالتفاف حوله يحقق الوحدة والتآزر حتى تتعطل أسباب الفرقة.

٢) كما قال تعالى: ﴿**تِلْكَ أَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الجاثية: ٦)، فإنه تحذير واضح وتوجيه بعدم اتباع أية روايات أو أحاديث أو مفاهيم بشرية تخالف كلام الله، وقد حدث هذا لما تم إضفاء القدسية على تلك الروايات بالرغم مما فيها من تناقض صادم في بعض الأحيان لآيات الله، فالله يريد لعباده التمسك بما جاء في كتابه العزيز ليحميهم من الوقوع في الصراع والتقاتل، فهو

سبحانه يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة حين تكون لهم مرجعية واحدة هي القرآن الكريم (الخطاب الإلهي).

٣) وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ (الفرقان: ٣٠)، ليخبر ويؤكد بأن رسول الله سوف يشتكي المسلمين إلى الله بأنهم هجروا القرآن منهًا ومحذرًا بخطورة الابتعاد عن التقيد بأوامر الله وتشريعاته، فيما نص عليه القرآن الكريم والذي هو بمثابة الدستور الإلهي الذي يضيء لهم طريق الحياة، ويعينهم على تحقيق السعادة في الدنيا، ويؤمن لهم حياة طيبة في الآخرة ويسكنهم جنات النعيم.

فإذا كان رسول الله ﷺ يشتكي أمته لله سبحانه بأنهم هجروا القرآن، ورغم ما في هذه الآية من التحذير الهام للمسلمين من قيامهم بهجر القرآن إلا أن الآية أنبأتنا بأنهم سيفعلون، لذا عليهم عدم تصديق أو اتباع أية روايات تدعي أنها قد أتت على لسان رسول الله افتراءً وكذبًا، روايات تتعارض مع القرآن بغية تحقيق مصالح دنيوية زائلة، وتهدم معها مرجعية القرآن لتقدم بذلك خدمةً لأعداء الله وأعداء الأمة.

٤) لقد وضع الله سبحانه وتعالى تشريعًا لخلقه مبنيًّا على حرية الاعتقاد والعدالة بأعظم صفاتها حيث يقول سبحانه: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ (الكهف: ٢٩)، وهي آية فيها من البيان والوضوح في حرية الاعتقاد والاختيار. وإن الله يخاطب نبيه: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس: ٩٩)؛ بذات المعنى وعلى فكرة أن لا إكراه في الدين والإيمان.

وتتكرر ذات المفاهيم وذات المقاصد في أكثر من مرة بغض النظر عن طبيعة وقدر التبعات الناشئة عن هذه الحرية، لكن الله سبحانه وتعالى لم يعط حقه في محاسبة

عباده لغيره بل أبقى هذا الحق خاصًّا به وحده سبحانه، حيث قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢).

ويتكرر التوجيه والتوضيح بشأن صلاحيات الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: ٤١).

إن الأحكام الإلهية واضحة جلية حدد فيها المولى عزوجل مسؤولية الأنبياء ومسؤولية خلقه من خلال استقبال الرسالة، وتبليغ الأنبياء للناس بأن لهم الحق في اختيار الدين الذي يريدون بمنتهى الحرية، وأن حسابهم عند الله جميعًا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

إن الخالق جل وعلا لم يمنح أي نبي أو رسول الحق في أن يشاركه في التشريع لخلقه ومحاسبة عباده على اختياراتهم الدينية، فاحتفظ بحق التشريع والحساب له وحده، وكلف النبي ﷺ بالتبليغ والشرح والتوضيح لمراد الله في كل آية من كتابه الكريم.

ومن هنا نرى في هذا العصر صورة واضحة للفرقة بين المسلمين حيث حذر سبحانه بعدم التفرق، وعدم هجر القرآن، بل بالاعتصام به ليحمينا من شرور أنفسنا ويجمعنا على كلمة واحدة على بناء مجتمع العدل والمحبة والسلام والرحمة للبشرية.

ويؤكد الله سبحانه وتعالى على التمسك بالقرآن الكريم وليس بغيره، لتستقيم حياة الناس والاعتصام بما أنزله الله على رسوله في كتابه الكريم تنفيذًا لقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف: ٤٣)، ويؤكد السياق القرآني ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

إن مظاهر هجر القرآن الكريم كثيرة وما حذرنا منه سبحانه وتعالى منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا تبدو جلية للعيان، بأن المسلمين لم يتمسكوا بالقرآن مما أدى إلى هبوط المستوى الإيماني والأخلاقي والثقافي والأدبي واللغوي.

وصار الناس لا يعرفون معاني القرآن الكريم ولا مقاصده! الأمر الذي ترتب أن فقدت العقول بوصلتها، وتجمد التفكير حيث لم يعد قادرًا على فهم تشريعات الله ومقاصدها ليؤسسوا عليها تشريعات وقوانين تنظم العلاقات الإنسانية فيما بينهم على أساس من الرحمة والعدل المساواة والسلام.

الصراع على الخلافة وظهور الفرق

أول ما يتبادر إلى الذهن في بداية قصة الخلاف بين المسلمين - المهاجرين والأنصار - هي تلك الواقعة التي حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرةً، بل وفي توقيت الوفاة نفسه؛ حيث لم يترك ﷺ وصيةً بأن يستخلفه أحد بعينه من أصحابه، فاندلع الخلاف في الرأي بين صحابته فيمن هو أحق بهذا الأمر، كي يتحد أمر المسلمين تحت قيادة واحدة.

فهناك من رأى أن أبا بكر الصديق أولى الناس بها، فقد ارتضاه رسول الله ﷺ لأمر الدين بإمامة المسلمين في الصلاة، ولتكن من تلك الواقعة الإشارة إلى قبول المسلمين له في أمر الحكم أي الخلافة.

ورأى فريق آخر من صحابة رسول الله ﷺ أن أحق الناس باستخلاف الرسول هم أهل بيته علي بن أبي طالب، ورأى المهاجرون أن الأولى بالخلافة هم أولئك الأولون من قريش، ورأى الأنصار أنهم من حقهم أن يستخلفوا الرسول في إمامة المسلمين في أمور الدين والحكم.

ولأهمية هذه القضية السياسية، والتي تلبست برداء من الدين فأحدثت شرخًا في وحدة المسلمين، وما زالت تداعياتها تلاحقنا جراء نشوء الفرق والمذاهب المتعددة إلى

يومنا هذا، لذا توجب علينا الوقوف معها بالتدبر والتحليل، علنا نجد المخرج المنشود من هذا التشرذم والخلاف الذي نعانيه في عالم اليوم:

- ذلك أنه فور وفاة الرسول ﷺ حدث حراك سياسي هام في المجتمع الإسلامي أدى هذا الحراك العفوي إلى الفرقة والانقسام، فالتفكير في تعيين خليفة للرسول، والخلاف الذي وقع حول هذه القضية كان يدل على أن المسلمين كانوا مدركين لتلك المرحلة بخصوصية مجتمعهم، وضرورة الحفاظ على استمراريته تحت سقف مرجعية واحدة، تمسك في يدها السلطة السياسية والشرعية والدينية.

فظهرت إلى الوجود ما يمكن تسميته بالآراء الأربعة؛ ادعت كل منها حقها في الخلافة والسلطة وقد تشكلت من (المهاجرين الأنصار الأرستقراطية الغنية في قريش ومؤيدي علي الذين عرفوا فيما بعد بـ"شيعة علي"). هذه التكتلات اقترحت ثلاثة معايير لاختيار الخليفة، وهي:

١ - **السابقة**: أي أن الأحقية في الخلافة هي لصاحب الأسبقية والأقدمية في دخول الإسلام.

٢ - **القرابة**: أي أن الأحقية تعتمد على رابط الدم، فالأقرب للرسول هو الأحق بخلافته.

٣ - **الرئاسة**: أي الزعامة في مرحلة ما قبل الإسلام، أي أن السلطة في مرحلة ما بعد الرسول هي من حق أصحاب المكانة النخبوية الأرستقراطية في مكة قبل الإسلام، حيث كان بنو أمية على رأس هؤلاء.

وتروي لنا المصادر الموثقة والعديدة أن أول من بادر إلى التحرك لاختيار خليفة كانوا الأنصار، حيث اجتمع هؤلاء في سقيفة بني ساعدة من أجل الإعلان عن "سعد ابن عبادة" خليفةً على المسلمين على اعتبار أن للأنصار فضلًا مزدوجًا على الإسلام، فعدا عن أنهم من السابقين للدخول في الإسلام، إلا أنهم قالوا: إن الاسلام ما كان لينتصر وينتشر لولا الملاذ الآمن الذي منحوه للرسول.

لكن محاولة الأنصار لاختيار خليفة من صفوفهم جُوبِه بمعارضة شديدة من جانب المهاجرين، حيث قاد الصحابي عمر بن الخطاب هذه المعارضة، إضافةً إلى الصحابي أبي بكر الصديق، وأبو عبيدة بن الجراح.

وهؤلاء الثلاثة أسرعوا إلى سقيفة بني ساعدة لقطع الطريق على الأنصار، ومنعهم من مبايعة "سعد ابن عبادة"، حيث أخذ عمر زمام المبادرة من خلال مبايعته لأبي بكر، مطالبًا الحضور بالحذو حذوه.

وهنا خشي الأنصار من أن امتناعهم عن مبايعة أبي بكر سيؤدي إلى وقوع الانقسام، فاضطروا مرغمين إلى مبايعة أبي بكر، ليصبح أول خليفة للمسلمين.

والجدير بالذكر أن الإسلام قد أقام نظام الشورى، إذ قال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكان النبي ﷺ يشاور المسلمين في معظم الأمور، ولكنه لم يترك قاعدةً واضحةً وثابتةً لاختيار الخليفة من بعده.

ويبرر العلامة أحمد أمين في كتابه يوم الإسلام موقف النبي من ذلك بقوله: "... وترك الأمر مفتوحًا لأنه لو وضع قاعدةً فيه لاتخذها المسلمون دينًا يتحجرون عليه.

فلما مات النبي حصل هذا الاختلاف فبايع عمر أبا بكر ثم بايعه الناس وكان في هذا مخالفة لركن الشورى ولذلك قال عمر (فيما بعد) أنها غلطة وقى الله المسلمين شرها. وكذلك كانت غلطة بيعة أبي بكر لعمر وإن كان قد استشار كبار الصحابة في ذلك فبعضهم حمده، وبعضهم خاف من شدته فقال أبو بكر إنه يراني ألين فيشتد".

ويضيف أحمد أمين: "وهكذا أسندت الخلافة إلى أبي بكر، ولما علم الإمام علي بما جرى في سقيفة بني ساعدة، وأن المهاجرين تمسكوا بأولوية قريش في الخلافة لقرابتهم من النبي، قال: "والله؛ تمسكوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة"، يعني أنهم اتخذوا القرابة من النبي حجةً لهم ولكنهم منعوه هو من الخلافة.

على أي حال ومهما كان من أمر، فقد بايع الإمام علي أبا بكر بعد ستة أشهر من وفاة الرسول (أحمد أمين/ كتاب يوم الإسلام).

وقد دامت خلافة أبي بكر عامين، ثم أوصى بها قبل وفاته إلى عمر بن الخطاب، والذي بدوره أوصى وهو على فراش الموت بتشكيل مجلس شورى من ستة أشخاص من الصحابة الكبار لاختيار واحد منهم خليفةً فهم ستة نفر (علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص) وأن يدير الاجتماع عبد الرحمن بن عوف. وكان أبرز المرشحين هما علي وعثمان.

فصوت ثلاثة لعثمان وهم: الزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، أجمعوا على اختيار الرابع وهو عثمان. وأما الخامس علي بن أبي طالب فقد انفرد بالخلاف، ثم بايع وهو يقول: "خدعة وأي خدعة!" وأما السادس طلحة فكان غائبًا كفل برأيه سعد بن أبي وقاص. انظر قصة الشورى في الطبري، أحداث سنة ٢٣ هـ.

وقد التزم عثمان بما وعد به مجلس الشورى خلال السنوات الست الأولى من خلافته، ولكنه انحرف عنه في السنوات الست الأخيرة حيث انحاز إلى أقربائه من بني أمية ففضلهم على بقية المسلمين في السلطة والمال والنفوذ.

وقد برر عثمان فيما أعطى لذوي قرابته من بيت المال فقال: "إن عمر كان يحرم قرابته احتسابًا لله، وأنا أعطي قرابتي احتسابًا لله، ومن لنا بمثل عمر؟" وهذا الانحياز لقرابته أثار عليه نقمة المسلمين من مختلف الأمصار، فثاروا عليه وقتلوه.

وبعد مقتل عثمان انتخب الثوار عليًّا خليفةً، وبايعه الناس بمن فيهم طلحة والزبير. ولم يستمر هذا الوئام طويلًا، إذ تمرد على علي بن أبي طالب كثيرون ومنهم من بايعوه مثل طلحة والزبير في أول الأمر، ثم انقلبوا ضده فيما بعد كما سنرى.

وقد اتخذ بنو أمية وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان مقتل عثمان ذريعةً لنيل الخلافة لأنفسهم، فقاموا بمطالبة علي بالكشف عن قتلة عثمان والانتقام منهم، الأمر

الذي لم يكن بإمكانه تنفيذه لعدم معرفة القاتل الحقيقي في خضم تلك الثورة، وكان محمد بن أبي بكر أحد المتهمين بقتل عثمان، فأعلن معاوية - الذي كان واليًا على الشام - التمرد على الخليفة.

انشقاق المسلمين وأولى الحروب بينهم

كانت السيدة عائشة في أول الأمر من المحرضين على عثمان وهي التي قالت عنه: «اقتلوا نعثلا لعن الله نعثلا»، ولكن ما إن سمعت أن علي بن أبي طالب اختير خليفةً حتى تحركت ضده مطالبة بدم عثمان، فتوجهت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير، ولحقهم الإمام علي إلى هناك حيث وقعت أول حرب بين المسلمين سُمِّيَت بحرب الجمل.

وسُمِّيَت بحرب الجمل لأن السيدة عائشة - أم المؤمنين - كانت على ظهر جمل تحرض المسلمين على قتال أنصار الإمام علي، ولم تقف الحرب إلا بعد أن تم قتل ذلك الجمل، وكانت عائشة تكره الإمام علي بسبب موقفه منها في قضية الإفك، وانتهت موقعة الجمل (٣٦هـ) بانتصار الإمام علي ومقتل الزبير وطلحة.

وبعد حرب الجمل حصلت حرب صفين (٣٧هـ)، وهي بلدة على ضفاف الفرات في سوريا، بين معسكر الإمام علي ومعسكر معاوية، وكانت تلك هي المواجهة الأهم - معركة صفين - بين علي ومعاوية والتي لم تنته بالحسم العسكري، وإنما بالتحكيم الذي كان دون أدنى شك في صالح معاوية.

كما أن قبول علي بمبدأ التحكيم جر عليه انقسام معسكره، وظهور أول فرقة دينية في الإسلام، وهي "الخوارج"، رغم أن المحرك الأول لظهور الخوارج كان الخلاف حول مسألة الخلافة، أي العامل السياسي، لأن الخوارج شكلت في الواقع أول فرقة دينية في الإسلام، فالبواعث لوجودها كانت سياسيةً؛ ارتبطت بشكل مباشر بالصراع حول مسألة الخلافة الإسلامية.

رفضت "الخوارج" مبدأ التحكيم رافعةً شعار "لا حكم إلا لله"، بمعنى الاستمرار بالقتال حتى الحسم على اعتبار أن المنتصر سينتصر بإرادة إلهية.

وبسبب الخلاف بينها وبين الخليفة علي نزعت الخوارج الشرعية عن علي بن أبي طالب مما اضطر الإمام علي إلى محاربتهم لتكفيرهم له وشراستهم وتمردهم عليه.

وانتهى الصراع باغتيال الإمام علي بن أبي طالب على يد أحد الخوارج يُدْعَى عبد الرحمن بن ملجم المرادي عام ٤٠هـ (٦٦١/٢/٢٨م). وبمقتل الإمام علي انتهت مرحلة الخلافة، وظهرت الدولة الأموية الوراثية.

ذهبت الخوارج بعيدًا عندما أجازت تعدد الخلفاء، بمعنى أن يكون لكل جماعة من المسلمين خليفة عليهم، وعزل الخليفة إذا لم يلتزم بأحكام الإسلام، إلا أن نقطة الخلاف بين الخوارج وخصومها تمحورت حول خطابها التكفيري المتشدد، وتحديد معايير صارمة لمسألة الانتماء إلى الإسلام، ذلك أن الخوارج اعتبروا أن كل مسلم يرتكب خطيئةً فهو كافر ومصيره جهنم.

وامتدادًا لهذا الخطاب المتشدد، جعلت الخوارج الجهاد ضد خصومها ركنًا سادسًا من أركان الإسلام، كما أنها أجازت "الاستعراض"، بمعنى إجازة قتل النساء والأطفال والشيوخ، وقد شكلت الخوارج أول انقسام ديني في الإسلام.

أثار الخطاب التكفيري المتشدد للخوارج آخرين انبروا له كرد فعل عليه، فظهر تيار فكري في الإسلام في تلك الفترة سُمِّي بـ"المرجئة" من فعل "أرجأ"، بمعنى أجل. حيث رفضت "المرجئة" مبدأ تكفير صاحب الخطيئة، معتبرةً أن الانتماء إلى الإسلام يقوم على مبدأ الإيمان، أما مرتكب الخطيئة فإن عقابه يُؤَجل إلى يوم الدين، لا شك أن الخطاب المعتدل الذي جاءت به المرجئة كان رد فعل على خطاب التكفير الذي جاءت به الخوارج.

ثم حصلت واقعة كربلاء بعد أن طلب أهل العراق من الحسين بن علي أن يقدم إليهم لينصبوه خليفةً. ولما استجاب الحسين لطلبهم ووصل العراق مع أهل بيته ونفر قليل من أنصاره لم يتجاوز عددهم ٧٢ شخصًا واجه جيشًا جرارًا أرسله الخليفة الأموي يزيد بن معاوية لمواجهته، فحصلت واقعة كربلاء في اليوم العاشر من شهر محرم عام ٦١ هجرية (١٢ أكتوبر ٦٨٩م).

وكانت مجزرةً داميةً رهيبةً ومأساةً كبرى بكل معنى الكلمة. وقد شكلت هذه الواقعة أهم حدث في تاريخ الشيعة، حتى إنه لا مبالغة في القول إن كربلاء بأحداثها وتداعياتها هي التي خلقت الشيعة كفرقة دينية في الإسلام.

وكانت كربلاء هي نقطة التحول الأهم على الإطلاق في تاريخ الشيعة، ذلك أن كربلاء نقلت الشيعة من الحيز السياسي إلى الحيز الديني والأيديولوجي، وكانت أهم حدث ساهم في بلورة الشيعة كفرقة دينية في الإسلام لها عقائدها الخاصة.

ومنذ تلك الواقعة المأساوية صار بعض المسلمين في العراق من شيعة (آل علي) مصدرًا للثورات والقلاقل ضد الحكام على مختلف الحقب التاريخية، وهذا ما يفسر لنا لماذا الشيعة هم على الدوام في منطقة المعارضة والتمرد؟ بل إنهم كانوا على الدوام كما البركان الهائج الذي لا يهدأ، وهكذا بدأت بثورة الحسين (٤٩هـ) وتلتها ثورة المختار (٦٧هـ) ثم ثورة زيد بن علي (١٢٢هـ) وثورة عبد الله بن محمد الحسني (١٤٥هـ).

وفي عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) توقف اضطهاد الشيعة، إذ كان المأمون شيعي الهوى، قرب منه الإمام الشيعي الثامن علي بن موسى الرضا، وأعلنه وليًّا للعهد.

يقول أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام، ج٣): "فبايع الناس لعلي بن موسى من بعد المأمون الذي أمر الناس بخلع لباس السواد ولبس اللون الأخضر، وكان هذا في خراسان.

فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي نسبةً للإمام علي، وتغيير لباس آبائه وأجداده بلباس الخضرة أنكروا ذلك وخلعوا المأمون من الخلافة غضبًا من فعله، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي".

ولكن تغير الوضع في القرن الثالث الهجري بعد استلام المتوكل الخلافة، الذي أعلن الحرب على جميع الفرق الإسلامية، حيث راح يضطهد المعتزلة والشيعة والخوارج والصوفية، وشجع من يطلقون على أنفسهم أهل الحديث وهم أصحاب الروايات من أتباع أبي الحسن الأشعري، وسعى لإيجاد فرقة مرتبطة به وتستند إلى المرويات والأسانيد والعنعنة استنادًا شرعيًّا من هنا كانت بداية الطامة، إذ ابْتُلِي المسلمون بالفكر القديم الرافض للتطور منذ ذلك العهد وإلى الآن.

وكل تلك الأحداث كان يقف خلفها السلاطين ووعاظ السلاطين. ففي عهد الدولة الأموية كان الشيعة يثورون على الدولة بسيوفهم، بينما كان أهل الروايات يثورون عليهم بنصوص ادعوا نسبتها للرسول ﷺ.

والجدير بالذكر أن مصطلح "أهل السنة والجماعة" لم يظهر في التاريخ إلا في عهد الخليفة العباسي المتوكل في القرن الثالث الهجري حين دُفِع في اتجاه تشجيع تدوين الروايات وتقريب الرواة من الولاة.

أبرز الأحداث الدامية

التي حدثت وتواصلت حتى الآن

- الخلاف على السلطة في سقيفة بني ساعدة، بين المهاجرين والأنصار، فيمن يتولى السلطة بعد رسول الله ﷺ.
- قتال المسلمين بعضهم البعض فيما سُمّي بحروب الردة، حيث قُتِل جمع غفير من الصحابة، علمًا بأن عقاب المرتد حكمه عند الله وحده فقط، كما تؤكد الآية الكريمة ذلك بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائدة: ٥٤).
- الفتنة الأولى والكبرى والتي بدأ يتفرع منها النزاع السياسي في ثوب ديني، مقتل الخليفة عثمان بن عفان في سنة ٣٥هـ، وتسبب ذلك في حدوث حروب طوال خلافة علي بن أبي طالب.
- موقعة الجمل وهي معركة وقعت في البصرة عام ٣٦هـ بين أنصار علي بن أبي طالب، والجيش الذي يقوده الصحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة التي قِيل أنها ذهبت مع جيش المدينة في هودج من حديد على ظهر جمل لذا سُمِّيت بمعركة الجمل، حيث قُتِل فيها مسلمون بأيدي مسلمين، ومات فيها عدد من أصحاب رسول الله.

- مقتل الصحابيين "طلحة والزبير" بيد مسلمين إثر أحداث واقعة الجمل في ٣٦هـ وطلحة بن عبيد الله هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين الأولين إلى الإسلام.
- موقعة صفين هي المعركة التي وقعت في شهر صفر سنة ٣٧هـ، بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان بعد موقعة الجمل بسنة تقريبًا على الحدود السورية وراح ضحيتها أعداد غفيرة من أصحاب رسول الله.
- معركة النهروان (٣٩هـ/ ٦٥٩م) دارت رحاها بين علي بن أبي طالب والخوارج، وهزمهم علي بعدما راح ضحية معركة النهروان خلق كثير من المسلمين، وما لبث الخوارج بعد ذلك حتى راحوا يقطعون الطرق ويسألون الناس حول آرائهم في الخلفاء الأربعة، ومن ليس على رأيهم يقتلونه ببشاعة وإجرام، وسالت الدماء المسلمة بيد مسلمين.
- اغتيال علي بن أبي طالب ٤٠هـ حيث كان يؤم المسلمين في صلاة الفجر في مسجد الكوفة، وفي أثناء الصلاة ضربه عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم على رأسه، وظل السم يسري بجسده إلى أن تُوُفّي بعدها بثلاثة أيام، تحديدًا ليلة ٢١ رمضان سنة ٤٠هـ.
- اغتيال الحسن بن علي حفيد رسول الله ﷺ ٤٩هـ فقد دس له السم في الطعام فمات مسمومًا.
- قتل الحسين بن علي ٦١هـ في مجزرة كربلاء على يد مسلمين تابعين ليزيد بن معاوية، وقتل معه ٧٣ فردًا من عائلة الرسول ﷺ، وحزت رأس الحسين سبط الرسول في تلك الواقعة.
- واقعة الحرة (عام ٦٣هـ) وكانت بين أهل المدينة من طرف ويزيد بن معاوية والأمويين من طرف آخر، وكانت من توابع معركة كربلاء، حيث نقض أهل المدينة بيعتهم ليزيد بن معاوية، نكايةً فيه لقتل قواته الحسين في يوم كربلاء، وانتهت بمقتل أكثر من سبعمائة من المهاجرين والأنصار عدد كبير من أبناء الصحابة والتابعين، وقام قائد

جيش يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة بتحويل المسجد النبوي إلى اسطبل تبول فيه الخيول لثلاث ليال وهو ما لم يتجرأ على فعله اليهود ولا الكفار.

- الاعتداء على الكعبة المشرفة ٧٣هـ من قبل الحصين بن نمير قائد جيش عبد الملك بن مروان أثناء حصارهم لقوات عبد الله بن الزبير والقضاء على ثورتهم، حيث قام الحصين بن نمير بضرب الكعبة بالمنجنيق دون مراعاة لحرمة البيت الحرام، وتهدمت أجزاء منها وهو ما لم يفعله أبو لهب وأبو جهل.
- مقتل عبد الله بن الزبير ٧٣هـ ابن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين بيد مسلمين يقودهم الحجاج بن يوسف الثقفي القائد الذي أرسله عبد الملك بن مروان لإخماد الثورة عليه، وحزت رأس ابن الزبير وصلب الحجاج بدنه منكسًا عند الحجون بمكة.
- مقتل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) حيث قُتِل مسمومًا بيد مسلمين.
- مقتل زيد بن علي بن الحسين (١٢٢هـ) في أعقاب ثورته على خلافة هشام بن عبد الملك، فيما يُعْرَف بأحداث الثورة الزيدية، فقُتِل هو وكثير معه بيد مسلمين، وصلبوه عاريًا على باب دمشق، ثم أحرقوه.
- مقتل الوليد الثاني بن يزيد الثاني الأموي القرشي (١٢٦هـ) بيد مسلمين.
- مقتل الخليفة إبراهيم بن الوليد الأموي القرشي (١٣٢هـ) الخليفة الأموي الثالث عشر؛ تولى الخلافة بعهد من أخيه يزيد الثالث، ومات قتيلًا عام ١٣٢هـ. لم يدم حكمه طويلًا إذ لم يبايعه إلا أهل دمشق، وخالفه ولم يعترف به مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فقد عده مسؤولًا هو وأخوه يزيد الثالث عن مقتل الخليفة الحادي عشر الوليد الثاني بن يزيد الثاني وكانت هذه مناورةً منه لاستلام الخلافة فقُتِل بيد مسلمين.
- مقتل آخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني بن محمد (١٣٢هـ) قتله رجال أبي مسلم الخرساني قائد جيش العباسيين.

- مجازر أبو العباس السفاح، فقد قتل الخليفة العباسي الأول كل من تبقى من نسل بني أمية من أولاد الخلفاء. فلم يبق منهم إلا من كان رضيعًا أو هرب إلى الأندلس، ثم أعطى أوامره لجنوده بنبش قبور بني أمية في "دمشق" فنُبِش قبر "معاوية بن أبي سفيان" ونُبِش قبر "يزيد بن معاوية"، ونُبِش قبر "هشام بن عبد الملك".
- مقتل أبي مسلم الخراساني قائد جيوش العباسيين (١٣٧هـ) ذلك أنه بعد وفاة أبو العباس السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦هـ خلفه أخوه أبو جعفر المنصور؛ فرأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع بالملك فاستشار بعض أصحابه فأشاروا عليه بقتله. فدبر له المنصور مكيدةً حتى قتله برومة المدائن سنة ١٣٧هـ وثارت لمقتله جماعة بزعامة (سنباذ) سنة ١٣٧هـ، ولكن لم تلبث أن أخمدت ثورتهم وراحت فيها دماء مسلمة كثيرة.
- مقتل الأمين سادس الخلفاء العباسيين (١٩٨هـ) على يد أخيه المأمون ابني هارون الرشيد إثر النزاع الذي دب بينهما، وكان هذا النزاع هو استمرارًا للصراع القائم بين العرب والعجم داخل الدولة العباسية، وكان يمثل الحزب العربي الأمين ووزيره الفضل بن الربيع، أما الحزب الفارسي فكان يتمثل بالمأمون ووزيره الفضل بن سهل، وانتهى النزاع بقتل المأمون أخيه الأمين.
- وتوالت الأحداث وتواصل القتل داميًا بلا هوادة حتى زمن الخلافة العثمانية، حيث استمر مسلسل قتل المسلمين بأيدي مسلمين ومنها.
- فبعد وفاة "أرطوغرول" ١٢٨١م نشب خلاف بين أخيه "دوندار" وابنه "عثمان"، انتهى بأن قتل عثمان عمه واستولى على الحكم، وهكذا قامت الدولة العثمانية.

- حفيده "مراد الأول" عندما أصبح سلطانًا، قتل أيضًا شقيقيه إبراهيم وخليل خوفًا من مطامعهما.

- ثم عندما كان على فراش الموت في معركة كوسوفو عام ١٣٨٩ أصدر تعليماته بخنق "ابنه" يعقوب حتى لا ينافس "شقيقه" في خلافته، وأصدر فتوى شرعيةً أحل فيها قتل ابنه من أجل وحدة الدولة ومصالحها العليا.

- السلطان "محمد الأول بن بايزيد الأول" (١٤٠٢ - ١٤٢١م) السلطان الخامس للدولة العثمانية والملقب بالجلاد، نازعه الملك إخوته: سليمان وموسى وعيسى، وكل منهم يدعي التقدم عليه في السلطنة وتمكن من التغلب عليهم وقتلهم.

- السلطان "مراد الثاني بن محمد الأول" (١٤٢١ - ١٤٥١م) سادس السلاطين العثمانيين قتل أخاه مصطفى.

- السلطان "مراد الثالث بن سليم الثاني" (١٥٧٤ ١٥٩٥م) السلطان الثاني عشر من سلاطين الدولة العثمانية، قام بقتل إخوته ليأمن على نفسه من النزاع على الملك، وكان ذلك قد أصبح عادةً تقريبًا وخلفه ابنه السلطان محمد الثالث.

- السلطان محمد الثالث بن مراد الثالث (١٥٩٥ ١٦٠٣م) هو الخليفة العثماني الثالث عشر من سلاطين الدولة العثمانية، ولم يكن أقل إجرامًا؛ فقتل أشقاءه التسعة عشر فور تسلمه السلطة، وقبل دفن أبيه ليصبح صاحب الرقم القياسي في هذا المجال بغية تثبيت حكمه. ولم يكتف بذلك فقام بقتل ولده الصغير محمود الذي كان يبلغ من العمر ١٦ عامًا؛ كي تبقى السلطة لولده البالغ من العمر ١٤ عامًا وهو السلطان أحمد.

- أما عن الجانب الإعلامي فإن كتب التاريخ وأصحاب الروايات يقولون إن هذا السلطان كان صاحب إيمان إسلامي كبير! فكيف بصاحب الإيمان الكبير ارتكاب هكذا جرائم، ما يندى لها الجبين وتتعارض مع شرع الله بتحريم قتل النفس دون ذنب.

- عندما أرادت "الدولة العثمانية" بسط نفوذها على القاهرة قتلوا خمسين ألف مصري مسلم!!

- أرسل "السلطان سليم" طلبًا إلى "طومان باي" بالتبعية للدولة العثمانية مقابل إبقائه حاكمًا لمصر؛ فرفض العرض، ولم يستسلم، ونظم الصفوف، وحفر الخنادق، وشاركه الأهالي في المقاومة. ولما انكسرت المقاومة هرب لاجئًا لـ (صديقه) الشيخ حسن بن مرعي؛ لكن الأخير وشى به فقُتِل، وهكذا أصبحت مصر ولايةً عثمانيةً في عام (١٥١٧م).

- ثم قتل السلطان سليم بعدها "شقيقيه" لرفضهما أسلوب العنف الذي انتهجه في حكمه.

في كل ما سبق

القاتلون كانوا يريدون خلافةً إسلاميةً، والمقتولين كانوا يريدون خلافةً إسلاميةً. القاتلون كانوا يرددون: "الله أكبر"، والمقتولون كانوا يرددون الشهادتين. مسلسل قديم مرعب ومخيف، لكننا لم نقرأ ونتدبر من التاريخ إلا ما أُرِيد لنا فقط أن نقرأه ونتدبره!!

(١٩) تلفيق الروايات

لقد أوقعتنا الروايات التي تم التسليم بصحتها نظرًا لما اعتقد البعض في صحة أسانيدها في مطبات لا يخرج منها المرء إلا بإيمانه الفطري، أما إذا أعمل التحليل العقلي فسيحصل لديه شرخ نفسي عميق، وعندما عمدوا لتأويل هذه المختلفات دخلنا في دوامة أخرى.

ولم يقف الدس عند هذا الحد؛ بل ذهب إلى المساس بقضايا منهجية وبالأسس التي قامت عليها معرفية القرآن كعصمته من التحريف ومصدره الإلهي وبنائيته المتفردة كتلك الروايات التي تشير إلى تحريف القرآن مثل القول بوجود آية الرضاع ورجم الكبير وأن هناك سورًا كاملةً نُسِخَت وهذا مثال للدس الفاضح للروايات:

روى مسلم في صحيحه أن عائشة قالت: كان فيما أنزل من القرآن (عشر رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمن)، ثم نسخن بخمسٍ معلوماتٍ، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن.

فإذا كانت العشر رضعات منسوخةً فأين آية الخمس رضعات ومن نسخها؟

وفي سنن ابن ماجة عن عائشة: (لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشرًا، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته، دخل داجن فأكلها).

فإذا كانت آية الرضاعة والرجم منسوخةً وأكلها داجن فبماذا نُسِخت الخمس رضعات؟؟

أما آية الرجم المزعومة: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقد تحلى الشيخ الجزيري بجرأة ورد بقوله:

(أما ما نقله البخاري تعليقًا من أن الذي كان في كتاب الله ورفع لفظه دون معناه، فهو - الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة إلخ - فإنني لا أتردد في نفيه لأن الذي يسمعه لأول وهلة يجزم بأنه كلام مصنوع لا قيمة له بجانب كلام الله الذي بلغ النهاية في الفصاحة والبلاغة). الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري الجزء الرابع ص٢٥٧.

وكذلك تصدى لمثل هذه الروايات الملفقة الإمام ابن حزم ولم يقم أي وزن لوجود مثل هذه الأقاويل في البخاري أو غيره فقال: "وذكروا حديثًا عن زيد بن ثابت أنه قال: (افتقدت آيةً من سورة براءة هي ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (التوبة: ١٢٨)؛ فلم أجدها إلا عند رجل واحد. وذكروا في ذلك أكاذيب وخرافات أنهم كانوا لا يثبتون الآية إلا حتى يشهد عليها رجلان! وهذا كله كذب بحت من توليد الزنادقة. (الأحكام لابن حزم، ج٦، ص٢٥٦).

والرواية في صحيح البخاري هي: عن خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت قال: نسخت الصحف في المصاحف ففقدت آيةً من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين وهو قوله ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾

(الأحزاب: ٢٣).

وحين يتورط من هم يؤمنون بدقة ومتانة وصحة كتابي البخاري ومسلم في مواجهة حقيقة تقول عكس ذلك يكون تراجعهم صامتًا وهادئًا. فالإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم أثنى على الكتاب صحيح مسلم وعلى مصنف الإمام مسلم بما يوحي بأنه في مرتبة عالية ولا يجوز أن يتسلب إليه الضعف وانعدام الصحة، فلنرى كيف سيتعامل الإمام النووي مع هذا الحديث وهو يتعرض له بالشرح وقد تورط فيه. وهاكم نص الحديث:

عن ابن عباس قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله ثلاث أعطينهن. قال نعم:

قال: عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها.

قال: نعم.

قال: ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك.

قال: نعم.

قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين.

قال: نعم.

قال هنا الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم لما أتى دور تلك الرواية في الشرح. قال: إن هذا الحديث فيه إشكال ووجه الإشكال أن أبا سفيان إنما أسلم يوم فتح مكة سنة ثمان للهجرة. والرسول تزوج أم حبيبة سنة ست. (صحيح مسلم بشرح النووي).

ونقول أن تلك الرواية أُرِيد من خلالها التأكيد على: فضيلة لمعاوية وأبيه، والرواية مردودة متنًا لأن واضعها اختلطت لديه التواريخ ونسي أن النبي ﷺ تزوج أم حبيبة قبل أن يسلم أبو سفيان.

من هنا نكرر ونقول: لا يوجد كتاب غير كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ذلك أننا نتحدث عن روايات حاول البشر حفظها عبر القرون قدر ما وسعهم في ذلك.

وعن كتاب فيه كلام الله هو سبحانه من تعهد بحفظه، ولم يكن ترك كل ما أتى عن الصحابة وتم نسبته للرسول ﷺ إنقاصًا من قدرهم، ولا هو تجريح في عدالتهم، ولا هو من قبيل التطاول على قدرهم ومكانتهم الموقرة في نفوس المسلمين وهم الصدر الأول لنا.

لكن هذا لا يمنعنا من الوقوف على رأس الحقائق بالدقة والتدبر، ذلك أن مجتمعهم كباقي المجتمعات يوجد فيه الصالح والطالح، وهذا لا يمنع من خيريته، ويوجد فيه بعض المنافقين وهذا ثابت بالنصوص القرآنية.

والتقول على رسول الله ﷺ كان موجودًا أثناء حياته، فهو مجتمع بشري أتى إليه الرسول ﷺ ليخرجه من الظلمات إلى النور، ولو كانوا ملائكةً على الأرض ما احتاجوا دعوة الرسول واصطفاء الله لهم بأن يجعل نبيه بين ظهرانيهم.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نقول: لو أن لدي هؤلاء الصحابة من ملكة الضبط والحفظ من دون كتابة وتدوين لأقوال الرسول، لكان من الأولى أن تكون تلك الملكة - التي ادعى البعض أنها في جملة الصحابة - للقرآن الكريم. حيث أنهم لم يدونوا ما كان يقوله الرسول وقد منعهم من ذلك الرسول ﷺ وكذلك منعهم أبو بكر وعمر كما سنأتي على ذلك بالتوضيح.

ولم تدون الروايات بالشكل الذي وصل إلينا الآن في كتب السنة إلا بعد مرور أكثر من مائة وثلاثين عامًا على وفاته ﷺ.

نعم؛ لم تكن ملكة الضبط الخارقة عند الصحابة، ولو كانت موجودةً وثابتةً للجميع لما احتاج الرسول أن يعين من يكتب القرآن ومن يحفظه، ومعلوم أنه كان حول الرسول أشخاص حُدِّدت لهم هذه المهمة: تدوين القرآن؛ فالضبط. إذًا؛ غير ثابت ومن البديهي أن تغيير كلمة أو نسيانها أو اقتطاع الحديث من سياقه أو أي تقديم وتأخير يخل بالمعنى ويغيره.

إن النبي ﷺ لم يجعل لأقواله كتابًا يكتبونه عندما كان ينطق بها كما جعل للقرآن الحكيم، وترك ﷺ كلامه ينطلق من غير قيد إلى أذهان السامعين، تخضعه الذاكرة لحكمها القاهر، فناله ما يناله الكلام من سهو أو غلط أو نسيان لمن حمله.

ومع مرور الزمان لم تصمد ذاكرة الحفاظ خاصةً إذا علمنا أن هناك من كان يستهدف الإسلام من اليهود والمجوس الفرس فأعملا الحيل الماكرة في الدس والتحريف ليتركوا لنا كمًّا هائلًا من الروايات المنسوبة زورًا لصحابة رسول الله، على اعتبار أنها مأخوذة عنه ﷺ.

في وضع كهذا لا تستطيع النصوص بقاءً من دون أن يتفكك نظم ألفاظها، وبدوره يتمزق معه سياق معانيها.

وقد كان ﷺ عليه مدركًا لهذا الخطر والذي نحن فيه الآن تقديس الروايات المنقولة عنه، ومن ثم يكون الانقلاب على الكتاب الإلهي، كان ﷺ متحسبًا لهذا لما نهى عن كتابة أي شيء يقوله غير القرآن:

فقد روى أحمد، ومسلم، والدارمي، والترمذي، والنسائي، عن أبي سعيد الخدري، قال: «قال رسول الله: لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، فمن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه». وأخرج الدارمي عن أبي سعيد الخدري: أنهم استأذنوا النبي في أن يكتبوا عنه فلم يأذن لهم.

وروى الترمذي عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد، قال: استأذنا النبي في الكتابة فلم يأذن لنا.

وقد استجاب أصحابه لهذا النهي، فلم يكتبوا عنه غير القرآن، ولم يقف الأمر بهم عند ذلك، بل ثبت عنهم أنهم كانوا يمنعون بشدة رواية أقوال الرسول، ويتشددون فيما يروى لهم منها، وقد كان أبو بكر وعمر لا يقبلان الحديث من الصحابي مهما بلغت منزلته عندهما، إلا إذا جاء عليه بشاهد يشهد معه أنه قد سمعه من النبي.

فها هو أبو بكر ينهى الناس عن التحديث عن رسول الله كما ذكر الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ ١: ٢ ٣. وفيه: أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم، فقال: «إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافًا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئًا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرموا حرامه».

وها هو عمر بن الخطاب يأمر الناس أن يأتوه بتلك المدونات، ثم يأمر بتحريقها، فتحرق كما ذكر ابن سعد في (الطبقات الكبرى ٥ - ١٨٨) وفيه: «عن عبد الله بن العلاء، قال: سألت القاسم يملي علي أحاديث، فقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها، ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب، قال: فمنعني القاسم يومئذ أن أكتب حديثًا».

وما ذهب إليه الخطيب البغدادي وابن عبد البر من أن نهي عمر عن كتابة الحديث إنما كان احتياطًا للدين، وحسن نظر للمسلمين لأنه خاف أن ينكلوا عن الأعمال، ويتكلوا على ظاهر الأخبار.

يحدث عبد الرزاق بن همام في (ج١١، ص٢٥٧ من مصنفه) عن معمر عن الزهري عن عروة: أن عمر بن الخطاب: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا.

وهكذا يتضح لنا أن المسلمين منعوا بعد وفاة رسول الله من نقل الحديث، ومن تدوينه، ونهج عمر وعثمان وأغلب خلفاء بني أمية نهج أبي بكر في منع التحديث والتدوين، وهكذا خرج تدوين الحديث من إطار السياسة الرسمية للدولة الإسلامية، ولم يكن يجرؤ أي أحد على تدوين الأحاديث، وجمعها في صحف خاصة بها. وهذا لا يمنع من قيام محاولات لخرق هذا الحظر، وهذا ما يؤكده حبس عمر لعدد من الصحابة بحجة أنهم يكثرون الحديث عن رسول الله ﷺ.

قصة تدوين الروايات

لم تكن الروايات التي نقرأها اليوم - في كتب مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وابن ماجه وبقية الكتب الأخرى - مدونةً في كتاب ولا حتى في صحيفة أو غير ذلك مما يمكن أن يكتب عليه، بل كانت مدونةً في ذاكرة الحفاظ وأهل النقل والأثر فقط لفترة زمنية تقدر بمائة عام أو أكثر!

وقد نهج خلفاء بني أمية نهج أسلافهم في منع تدوين الحديث النبوي، واستمرت سياسة المنع الرسمي قائمة حتى نهاية القرن الأول الهجري، وبالتحديد إلى زمن عمر بن عبد العزيز الذي أمر بجمع الحديث وتدوينه رسميًّا، وأصدر أمره بذلك لابن حزم الأنصاري.

فقد ذكر البخاري في صحيحه (ج١، ص٣٣، باب كيف يُقْبَض العلم)، قال:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم (تُوُفّي سنة ١٢٠هـ): انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يُقْبَل إلا حديث النبي ﷺ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا.

قال ابن حجر في الفتح (ج١، ص١٧٤)، قوله: فاكتبه. يُسْتَفاد منه ابتداءً تدوين الحديث النبوي، وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ، فلما خاف عمر بن عبد العزيز - وكان على رأس المائة الأولى - من ذهاب العلم بموت العلماء، رأى أن في تدوينه ضبطًا له وإبقاء.

ويقول السيوطي في ذلك: «وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع في رأس المائة، في خلافة عمر بن عبد العزيز بأمره».

من هنا يتبين لنا أنه حتى رأس المائة الأولى (على أحسن الافتراضات) لم تكن هناك روايات مدونة ولا مكتوبة، بل كانت في حافظة الحفاظ تتنقل من حافظ إلى حافظ آخر، ومن هنا ينتابنا الشك والارتياب من صحة الاعتماد والوثوق بدقة المنقول هذا. فالفترة طويلة جدًّا تتراوح ما بين ٩٠ إلى ١٣٠ سنة وربما أكثر!

خلاصة القول

إن التدوين الرسمي للروايات لم ينشأ إلا في القرن الثاني للهجرة في أواخر عهد بني أمية، وإنه لم يتخذ طريقًا واحدًا، بل تقلب في أطوار مختلفة، وهذا هو «الطور الأول» من التدوين، ولم يصل إلينا منه شيء في كتاب خاص جامع.

ثم أخذ التدوين «طوره الثاني» في عصر العباسيين، بعد أن ضموا إليه ما زادته الرواية في هذا العصر. وظل التدوين يجري بدفع وإيعاز من الخلفاء آخر المائة الثانية، ولم يصل إلينا من الكتب المبوبة في هذا الطور إلا موطأ الإمام مالك، وبعد المائة الثانية

أخذ التدوين يسير في طرق أخرى، دخل بها في «الطور الثالث»، وهو جمع كل ما رُوِي من الأحاديث في عهدهم بالتدوين.

وصُنِّفت في ذلك مسانيد كثيرة، أشهرها: «مسند أحمد»، وهو لا يزال موجودًا بيننا. وجرى العمل على هذا النهج حتى ظهر البخاري وطبقته، فانتقل التدوين إلى «الطور الرابع»، وهو طور الإنتقائية وما يرونه صحيحًا على طريقتهم الخاصة، كما فعل البخاري ومسلم ومن تبعهما ... وهذا الطور من التصنيف هو الأخير.

أما الشيعة فلهم كتب في الروايات خاصة بهم يعتمدون عليها، ولا يثقون إلا بها.

وبهذا يخلص لك أن تدوين الروايات المعتمد لمن جعل من الروايات مصدرًا للتشريع، هذا التدوين لم يقع إلا حوالي منتصف القرن الثالث إلى القرن الرابع الهجريين.

وقفة بالتدبر والتفكر

لما قويت شوكة الدعوة المحمدية واشتد ساعدها لم ير من كانوا يقفون أمامها ويصدون عن سبيلها إلا أن يكيدوا لها بوسائل الحيلة والخداع بعد أن عجزوا عن النيل منها بعدد القوة والعتاد.

على رأس هؤلاء جاء الإسرائيليون الذين زعموا أنهم شعب الله المختار، ولا يقرون لنبي بعد موسى «عليه السلام» برسالة، فلم يجد أحبارهم ورهبانهم بدًّا من أن يستعينوا بالمكر ويتوسلوا بالدهاء لكي يصلوا إلى ما يبتغون، فهداهم مكرهم إلى أن يتظاهروا بالإسلام ويطووا على دينهم لكي يختفي كيدهم ويجوز على المسلمين مكرهم.

وتحت عنوان «الإسرائيليات في الحديث»، يذكر الباحث محمود أبو رية في كتابه «قصة الحديث المحمدي» أن كعب الأحبار ووهب بن منبه كانا من أقوى الكهان دهاءً وأشدهم مكرًا، وقد وجدا أن حيلهما راجت على المسلمين بما أظهراه من كاذب الورع

وباطل التقوى، فجعلا أول همهما أن يضربا المسلمين في صميم دينهم، فدسا إليه ما يريدان من الأساطير والخرافات لكي يهن وتضعف قوته.

لم يستطع كعب الأحبار ووهب بن منبه أن ينالا شيئًا من القرآن لأنه قد حُفِظ بالتدوين وحفظه الألوف من المسلمين، وبذلك أصبح في منعة من أن يُزَاد عليه كلمة أو يندس إليه حرف، فاتجها إلى الحديث عن النبي فافتريا ما شاءا أن يفتريا من أحاديث كثيرة لم تصدر عنه ﷺ.

وأعانهما على ذلك - والكلام لا يزال للمؤلف - أن ما تحدث به النبي في حياته لم يكن محدود المعالم ولا محفوظ الأصول لأن الرسول منع تدوينه في حياته كما دُوِّن القرآن، ومنع الخليفتان أبو بكر وعمر الصحابة من كتابته.

قال ابن خلدون في مقدمته وهو يتكلم عن التفسير النقلي وأنه كان يشتمل على الغث والثمين والمقبول والمردود:

إن السبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإن تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم.

وامتلأت كتب التفاسير من المنقولات عندهم، وتساهل بعض المفسرين في مثل ذلك، وكان ابن إسحاق يحمل عن اليهود ويسميهم أهل الكتاب الأول.

كعب الأحبار

كان من أكبر أحبار اليهود، وأسلم في عهد عمر وسكن المدينة في خلافته ثم تحول إلى الشام في عهد عثمان، فاصطفاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه، إذ كان يردد

«ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أُنْزِلت على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه»، ومن أجل ذلك أخذ عنه كثير من رواة الأحاديث منهم أبو هريرة وابن عباس وغيرهما من التابعين، مات بحمص سنة ٢٢ أو ٢٧ هجرية.

وهب بن منبه

فارسي الأصل، أدرك عددا من الصحابة وروى عنهم، وكذلك روى عنه كثير من الصحابة منهم أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وغيرهم، ومن مزاعمه أنه قرأ من كتب الله ٢٧ كتابًا، وقال الذهبي: إنه عالم أهل اليمن، وُلِد سنة ٢٤هـ، وتُوُفِّي بصنعاء سنة ١١٠هـ.

ولما قدم كعب إلى المدينة في عهد عمر وأظهر إسلامه أخذ يعمل في دهاء ومكر لإدخال الفساد على الدين الإسلامي؛ فتمادى في الافتراء على الرسول ﷺ إلى أن فطن له عمر فنهاه عن الرواية لكنه عاد إلى الرواية بعد موت عمر.

معاوية وكعب وذو القرنين

ويسرد مؤلف كتاب «قصة الحديث المحمدي» بعض ما بثه كهنة اليهود من الإسرائيليات في علم المسلمين وعقائدهم، منها قول معاوية لكعب: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال كعب: إن قلت ذلك فإن الله تعالى قال: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ (الكهف: ٨٤).

وذكر القرطبي في سورة غافر عن كعب أنه قال: لما خلق الله تعالى العرش، قال: لم يخلق الله تعالى خلقًا أعظم مني: واهتز تعاظمًا، فطوقه الله تعالى بحية لها ٧٠ ألف جناح، في كل جناح ٧٠ ألف ريشة، في كل ريشة ٧٠ ألف وجه، في كل وجه ٧٠ ألف فم، في كل فم ٧٠ ألف لسان، يخرج من أفواهها من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد

الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا وعدد الملائكة أجمعين، فالتوت الحية على العرش، فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية عليه، فتواضع العرش عند ذلك.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب قال: الأرضون السبع على صخرة، والصخرة في كف ملك، والملك على جناح الحوت، والحوت في الماء، والماء على الريح، والريح على الهواء، ريح عقيم لا تلفح وأن قرونها معلقة في العرش.

وعن وهب بن منبه: أربعة أملاك يحملون العرش على أكتافهم، ولكل واحد منهم أربعة وجوه، وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر ووجه إنسان، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة، أما جناحان فعلى وجهه ليحفظاه من أن ينظر إلى العرش فيصعق فيهفو بهما، ليس له كلام إلا أن يقول: قدوس الملك القوي ملأت عظمته السماوات والأرض.

ومما دسوه في التفسير أن السماوات بعضها من الفضة وبعضها من الزبرجد، وأن السيارات مركوزة بالسماوات، فالقمر مركوز بسماء الدنيا، وعطارد بالثانية، وهكذا في السابعة، والسماوات موضوعة على رأس جبل محيط بالأرض يُقَال له (قاف)، وأن الأرض موضوعة على قرن ثور قائم فوق ظهر حوت يسبح في الماء، إلخ.

هذه الأمثلة من الإسرائيليات وهناك غيرها مئات، امتلأت بها كتب التفسير والحديث والتاريخ.

هل يجوز تصديق الكهنة والأحبار؟

روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: «آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم».

وأخرج سفيان الثوري الحديث بلفظ: «لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم إن يهدوكم وقد ضلوا أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل».

ورغم ما رُوِي عن النبي «صلوات الله عليه» في النهي عن الأخذ من أهل الكتاب، لكن ما لبث أن اغتر بعض المسلمين - والكلام للمؤلف - بمن أسلم من أهل الكتاب، فظهرت آثار تنسب إلى النبي تبيح الأخذ عن أهل الكتاب وتنسخ ما نهى النبي عنه.

فقد عُزِي إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وكانا يتلقيان عن كعب الأحبار هذا الحديث: «خذوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

وكان من عاقبة ذلك أن كثرت الأحاديث المنسوبة إلى النبي كثرةً هائلةً حتى بلغت مئات الألوف، مما جعل الحافظ الدارقطني يقول: «إن الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود».

وقال الإمام أحمد في مسنده «هذا الكتاب جمعته وانتقيته من ٧٥٠ ألف حديث»، وكان أبو زرعة يحفظ ٧٠٠ ألف حديث، واختار البخاري كتابه من ٦٠٠ ألف حديث، واختار مسلم كتابه من ٦٠٠ ألف حديث، وهذه الكثرة الهائلة أفزعت العلماء، ومنهم ابن الجوزي والسيوطي والملا علي القاري، فنهضوا لكشف القناع عن الأحاديث الموضوعة ووضعوا لها المؤلفات الكثيرة.

أبو هريرة

من أكثر الصحابة روايةً للأحاديث، ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في اسمه، فقال ابن عبد البر في الاستيعاب: اختلفوا في اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا، وقد غلبت عليه كنيته، فهو كمن لا اسم له غيرها.

وقال أبو هريرة عن نفسه: نشأت يتيمًا وهاجرت مسكينًا وكنت أجيرًا لبسرة بنت غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي فكنت أخدم إذا نزلوا وأحدوا إذا ركبوا، وكُنِّيت بهرة صغيرة كنت ألعب بها.

وكان قدومه على النبي سنة سبع، والنبي ﷺ بخيبر بعد ما فتحت، وفرغوا من القتال فيها فسكن الصفة - موضع مظلل في مؤخرة مسجد النبي بالمدينة، خُصِّصت للفقراء ينامون فيها على عهد الرسول - وفي ٨ هجرية بعثه النبي إلى البحرين مع العلاء بن الحضرمي.

وأجمع رجال الأثر على أن أبا هريرة أكثر الصحابة حديثًا عن رسول الله، على حين أنه لم يصاحب النبي إلا زمنًا قليلًا ... وذكر أبو محمد بن حزم أن مسند بقي بن مخلد احتوى على ٥٣٧٤ من أحاديث النبي روى البخاري منها ٤٤٦.

ولما رأى عمر بن الخطاب أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي نهاه عن ذلك وحذره إذا هو روى فإنه ينفيه إلى بلاده، ولما مات عمر عاد للرواية.

عن الزهري عن أبي سلمة قال: سمعت أبا هريرة يقول: ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله حتى قُبِض عمر، فإن عمر كان يقول: اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله. وقد نهى عمر كذلك كعب الأحبار وهدده إذا روى أن ينفيه إلى أرض القردة.

وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث: كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله كذا، وإنما سمعه من الثقة عنده فحكاه، وكذلك كان ابن عباس يفعل، وغيره من الصحابة.

وكان أبو هريرة وابن عباس والعبادلة الثلاثة وغيرهم كذلك يروون عن كعب الأحبار كما عُرِف من أمره.

روى مسلم عن بشر بن سعيد قال: اتقوا الله وتحفظوا في الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله ويحدثنا عن كعب الأحبار، ثم يقوم فأسمع بعض من كانوا معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله.

وروى أحمد في مسنده عن القاسم بن محمد قال: اجتمع أبو هريرة وكعب الأحبار فجعل أبو هريرة يحدث كعبًا عن النبي، وكعب يحدث أبا هريرة عن الكتب، أي مما يفتريه كعب من الإسرائيليات التي يزعم أنها من كتبهم.

ويورد المؤلف حديثًا يؤيد ذلك؛ رواه مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله بيدي فقال: "خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر، من يوم الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل". وكذلك روى هذا الحديث أحمد والنسائي عن أبي هريرة.

ولأن هذا الحديث يخالف نص القرآن والتوراة من أن الله خلق الدنيا في ستة أيام، فإن الحفاظ الكبار كالبخاري في التاريخ الكبير وابن تيمية وغيرهما قد طعنوا في هذا الحديث وقطعوا بأن أبا هريرة قد تلقاه عن كعب الأحبار، رغم أنه صرح فيه بسماعه عن النبي، وأن النبي قد أخذ بيديه وهو يحدثه به.

إنكار الصحابة على أبي هريرة ودفاعه عن نفسه

قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث: إنه (أبا هريرة) لما أتى من الرواية عنه ما لم يأت بمثله من جملة أصحابه والسابقين الأولين إليه اتهموه وأنكروا عليه، وقالوا كيف سمعت هذا وحدك؟ ومن سمعه معك؟ وكانت عائشة (رضي الله عنها) أشدهم إنكارًا عليه لتطاول الأيام بها وبه.

هكذا كان أول الأمر بالروايات، فيه من الاضطراب والتشكيك ما أقربه حتى من يدافعون عن تلك الروايات ويدافعون عن أصحاب الكتب الستة.

الخلاصة

لقد تم فيما سبق عرضه على طول سياق الكتاب استعراض الفرق بين الخطاب الديني والخطاب الإلهي، حيث إن الخطاب الديني كما رأينا قد اعتمد على روايات وأقوال كانت هي مرجعه الأساس، بينما الخطاب الإلهي قد ارتكز وقامت قاعدته على أساس متين من نصوص القرآن الكريم.

وتم عرض بعض الأمثلة من الروايات التي أطلقوا عليها وسُمِّيت زورًا وبهتانًا بالأحاديث من أجل إضفاء صفة شرعية دينية عليها، رغم ما عليه تلك الأحاديث من حال تناقض مع التشريع الإلهي وتصادم مع مقاصد الخطاب الإلهي، فليس ثمة مصدر للتشريع سوى من الله سبحانه وتعالى، فهو وحده من يملك حق التشريع لعباده، وكلف الله الأنبياء والمرسلين بإيصال تشريعه للناس وتعليمهم أهدافه وتوضيح معانيه، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩).

كما لم يفتنا - ولله الحمد والمنة - عرض بعض الأمثلة على انقلاب المسلمين على الكتاب، حينما تحولوا إلى فرق لكل فرقة منهم مرجعيتها ومنهجها، وكل منها لا يستند لشرع الله ولا شريعته التي جاءت في كتابه الكريم.

وكان من نتيجة ذلك أن ضرب الخلاف بينهم إلى أن وصل حد الاقتتال، وتعصبت كل فرقة وطائفة لمنهجها وقادتها، فضلًا عن الصراع من أجل السلطة، واستندوا إلى الروايات واستشهدوا بها في حومة الصراع الدائر بينهم، فكل فرقة تسعى لتبرير أفعالها وآثامها بما تراه مناسبًا من الروايات.

لقد أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ ليقوم بإبلاغ رسالة اكتمل فيها التشريع الإلهي في أجلى صوره، فهو سبحانه وتعالى حدد لرسوله مهمته العظيمة للبشرية قاطبةً. فقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ (الفتح: ٨)، ودعا سبحانه وتعالى الناس للاستجابة لبلاغه الذي يقوم به الرسول فقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**﴾ (يونس: ١٠٨).

فلم يكن الرسول مشرعًا وإن كان منوطًا به حمل التشريع من الله إلى الناس، بل كان الرسول مبشرًا ونذيرًا ليعلم الناس الحكمة، ويشرح لهم كلام الله، ويفسر ويبين لهم ما استعصى عليهم فهمه من أمر بمعروف، ونهي عن منكر، ولم يترك الله سبحانه وتعالى في كتابه من شيء إلا وذكره، سواءً بالتلميح أم بالتصريح. فقال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ (الأنعام: ٣٨).

والله سبحانه وتعالى يخاطب عقول الناس في حاضرهم، وكلما انتهى عصر يظل الخطاب الإلهي حيًّا يواكب الواقع ويتعاطى معه وإلى أن تقوم الساعة. نعم؛ خطاب إلهي يخاطب الأحياء في عصرهم ولا يخاطب من انقضى ومات ممن مضوا من السابقين، خطاب يحاور الأحياء في عالمهم الذين يعيشون فيه، وليس معنيًّا بالأموات بعد رحيلهم.

قال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (يس: ٦٩ - ٧٠).

إذًا؛ فالخطاب الإلهي يخاطب الأحياء، وكل حي مأمور بأن يتدبر القرآن، وكل إنسان حي عليه أن يتفاعل مع النص القرآني ويتدبره ويفهم مراد الله من آياته وألا يعتمد على فهم من سبقه، فكل عصر له ظروفه وآلياته في الفهم والاستيعاب.

ولم يحدد الله سبحانه وتعالى مخاطبة فئة من الناس من دون غيرهم، ولو كانوا حتى من العلماء أو الأئمة، إنما يخاطب الله عقول البشر جميعًا من دون استثناء، ويحق لأي عبد من عباده التدبر في كتاب الله، وقد يسر الله لمن أراد التدبر أن يفهم مراده في آياته.

فالمعرفة والفهم والاستيعاب لم يجعلهم الله قاصرين على فئة من الناس من دون غيرهم، لذا كان فرضًا على الإنسان استعمال عقله في فهم وتدبر الآيات، وإذا استعصى عليه بعض الآيات فعليه التوجه بالسؤال لمن أنعم الله عليه بالمعرفة، من هنا كان أمر الله لنا باتباع "فريضة التفكير" لمعرفة مقاصد الخطاب الإلهي.

إننا نرى في عصرنا هذا كل من يُسَمون بعلماء الدين وقد صاروا لا يتدبرون القرآن، ولا حتى نراهم يجتهدون في استنباط تشريعات من آيات الله لخلقه، بل اعتمدوا على ما جاءهم من اجتهادات ومفاهيم مضت عليها القرون، وتعارضت مع حركة التطور الإنساني، فالناس ليسوا ملزمين بها باتباع آراء ومفاهيم ضلت الطريق وأضلت من اتبعها.

كل المذاهب الدينية بمختلف مؤسسيها وفقائها وأتباعها، تلك التي استظلت بمصطلحات لا أساس لها من القرآن، ولا مما حمله رسول الله للناس من آيات بينات، تلك المصطلحات مثل السنة والجماعة بمختلف فرقها، والشيعة الاثني عشرية وفرقها المختلفة التي نشأت لخدمة أغراض سياسية، واستحقاقات دنيوية ومكاسب أنانية تؤسس للفرقة بنيانًا، وتعد للصدام فيما رفعته من شعارات تستثير العصبيات والنعرات الطائفية، وما يترتب عن ذلك من قتل وسفك للدماء.

والله سبحانه يؤكد في منهج كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ (الحج: ٧٨).

حيث تؤكد الآية على أنه مصطلح واحد أوحد وتسمية واحدة (المسلمين فقط)؛ لذا علينا إعمالًا لأمر الله أن لا نتداول تلك المسميات ولا نستعملها، فهي مسميات ومصطلحات تثير الفرقة والتمزق واتباع مذاهب شتى لا أصل لها في الإسلام، وعلى كل من أراد اتباع هدى القرآن ورسالة الخالق، ومن آمن بالقرآن تنزيلًا من الله لرسوله، وآمن بمحمد ﷺ رسولًا وأقام تكاليف العبادات عليه ترك تلك المسميات المذهبية التي تدعو للفرقة والتشرذم، فالمسلم هو مسلم ما دام آمن بكل هذا وكفى به فوزًا أن يكون عند الله من عباده المؤمنين.

حيث يقول سبحانه تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (آل عمران: ١٩).

لقد جاءت رسالة الخالق لعباده يدعوهم للإسلام دينا، والإيمان برسوله إمامًا وسراجًا منيرًا وهاديًا للناس. فمن آمن برسالة الإسلام والتزم تكاليف العبادات واتبع ما أمر الله به قولًا وعملًا فقد حاز التكريم الإلهي الذي كرمنا به، إذ سمانا المسلمين تشريفًا لمن اتبع قرآنه وتدبر آياته.

وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (آل عمران: ٦٧). وقال تعالى: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ٨٤).

وتلك الآية تؤكد لنا على وحدة الرسالات، وأن كل الأنبياء الذين كُلِّفوا بحمل رسالة الإسلام هم مسلمون، من هنا قد ارتضى الله لنا الإسلام دينًا، وكرمنا بتسمية من آمن برسالته واتبع رسوله محمد ﷺ بالمسلمين، فكيف تجرأ من تصدوا للدعوة الإسلامية وممن يُسَمَّون بعلماء

المسلمين وأئمة الإسلام في الماضي والحاضر بأن يبتدعوا مسميات تتعارض مع مراد الله لعباده بتسميته بالمسلمين وأن يعصوا أمر الله في تكريمه لعباده المؤمنين.

ويحذرنا سبحانه بقوله: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (آل عمران: ٨٥).

فإذا جاء يوم الحساب، وجاء الناس جميعًا يرجون رحمته، فمنهم من أتى بمسميات مذهبية سنية أو شيعية أو إباضية وخلافه، فلن يستقيم أمرهم مع مراد الله، ولن يقبل الله منهم أعذارهم، ولن يسامحهم على تفرقهم، ولن يغفر لهم استبعادهم القرآن الكريم من تشريعاتهم وسلوكياتهم، ساعة يكون الحكم لله وحده، في الوقت الذي فيه يقبل الله أعمال المسلمين الذين آمنوا به، وصدقوا رسوله، وأدوا تكاليف العبادات كما أمر الله ورسوله.

إن الثوابت في الدين الإسلامي تكمن في الآتي ذكره:

أولًا: الإيمان بالله الواحد الأحد؛ لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

ثانيًا: الإيمان بالقرآن كتاب الله الذي أنزله على رسوله هدًى للناس ورحمةً ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ثالثًا: الإيمان بأن الله أرسل سيدنا محمد ﷺ رسولًا للناس كافة، ليتلو عليهم آيات بينات ترسم لهم خارطة الطريق في الحياة الدنيا، وتكسبهم رضى الله بالفوز بالجنة.

رابعًا: الالتزام بتكاليف العبادات وأركان الإسلام التي تم ذكرها تفصيلًا فيما سبق، وتلك هي الثوابت التي يحترمها المسلمون ويلتزمون بأدائها، ويبقى للمسلمين التفكر والتدبر للتعاطي والتعايش مع الواقع المحيط بهم وفق إطار ضوابط القرآن الكريم، ووفق تنوع المفاهيم الإنسانية وتعدد ظروفها الاجتماعية وأهدافها السياسية بغية الحفاظ على المكتسبات والامتيازات التي قطع فيها المجتمع الإنساني شوطًا طويلًا ينبغي البناء عليه وتحسينه.

ففي تلك التعددية تكمن سنة الله في خلقه، كما يكمن فيها أرزاق الناس ومعاشهم، ولسنا ملزمين باتباع تلك الفتاوى والتفاسير والاجتهادات التي تتصادم مع الواقع وما في ذلك من ضياع مصالح الناس وتهديد أمنهم، علينا فقط الالتزام بكتاب الله والعمل وفق شريعته، وكتاب الله يدعونا للتدبر والعمل على إعمار الأرض وإصلاح المجتمعات الإنسانية.

وفي الختام نقول:

إنه خطاب من الله للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ (الأنفال: ٢٤).

وبهذا يكون الخطاب ليس خطابًا للأموات، ولا هو للأمم السابقة، بل هو خطاب للأحياء الذين يتلون كتاب الله، ويستمعون إليه ويتفاعلون مع نصوصه، كي تتحقق الصلة بين الله وعباده بحبل من الله يمتد من الأرض إلى السماء، ولن يحدث ذلك الاتصال إلا من خلال الالتزام بتعاليم القرآن الكريم.

كما لن يحدث هذا التواصل مع الله إلا عبر التوحد والتلاحم بين المسلمين كما أراد لنا الله ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ولن يتحقق هذا التواصل مع خالق العباد إلا من خلال تلاوة القرآن والتفاعل مع آياته والاجتهاد في معرفة مراد الله، وفهم مقاصده لخير الناس، فلم ينزل الله سبحانه القرآن على رسوله لتلاوته في افتتاح الاحتفالات أو تلاوته في مجالس العزاء للأموات.

من هنا علينا أن نجعل كتاب الله الكريم هو المرجع الوحيد في تأسيس التشريعات والقوانين التي تنظم العلاقة بين الناس جميعًا بالعدل والمساواة، وأما العلاقة بين الله وعباده فقد تأسست على حرية العقيدة والتقيد بأوامر الله ونواهيه، والالتزام بتكاليف

العبادات بحكم تلك العلاقة المقدسة، والتي لم يكلف الله أيًّا من أنبيائه بأن يكونوا أوصياء على خلقه أو وكلاء عنه في الحياة الدنيا، إنما فقط عليهم إبلاغ رسالته للناس جميعًا، والله وحده يقضي بحكمه على عباده، على أساس من العدل والرحمة كما في قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ (فصلت: ٤٦).

ولقد اختتم رسول الله ﷺ رسالته في حجة الوداع بالآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (المائدة: ٣)؛ آية أُنْزِلت على رسولنا الكريم ليبلغ الناس بها إذ أنه بهذه الآية يكون قد استكمل رسالة الإسلام فلا يوجد قول أو رواية بعد كلام الله.

ولقد تاه العقل بين الروايات وبين تداخل الفلسفات اليونانية وبين أساطير الإسرائيليات وبين أهل الكلام والسفسطة وبين مئات الرواة وأوجدت هذه الأوضاع تصدي بعض المنظرين وأدعياء الدين بوضع مناهج للتأكد من صحة الروايات.

وأصبح لها مقاييس عقلية وعلمية، فزادات في تغييب العقل المسلم، وابتعدت به كثيرًا عن الخطاب الإلهي الذي أنزله الله على رسوله الذي يخاطب الناس بآيات واضحة، وأهداف محددة وكلمات لا تحتاج إلى التدقيق أو التأكد من مرجعيتها، فهي كلمات الله التي أنزلها على رسوله بقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (البقرة: ٢٥٢)، وقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الجاثية: ٦).

إن الهدف الأساسي من تغييب عقول المسلمين أن يتوهوا في الروايات، وينشغلوا بمصداقيتها ويتأكدوا من الرواة هل هم عدول أم لا، وكيف يستطيعون تقييم أقوال أناس ماتوا منذ مئات السنين، وأن يتحققوا من مصداقية أقوالهم بالرغم من أن الله سبحانه وتعالى نهنا في الآيات السابقة بأنه قد حصن رسالة الإسلام بالقرآن، ونبه بعدم

اتباع أعداء الإسلام بقوله تعالى: ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ (التوبة: ٣٢)؟

إنه تحد عظيم من خالق السماوات والأرض بأن محاولات أعداء المسلمين بأن يطفئوا نور الله - وهو القرآن الكريم - برواياتهم وتضليلهم وأقوالهم، لكنهم لن يفلحوا أبدًا، وسيظل نور القرآن يوقظ الضمائر، ويلهم العقول، ويطمئن النفوس بأن وعد الله حق حيث يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء: ٩).

إن المستهدف هو أن يبتعد المسلمون عن القرآن الكريم لكي يسهل اقتيادهم كي يتم تشتيتهم فكريًّا ومن ثم يتحول إلى صراع واقتتال قد نجح في استغلاله أعداء الإسلام فيما خططوا له بعزل القرآن وآياته عن المسلمين، وأصبح المسلمون في ظلمات يتخطفهم الناس من كل جانب، فلا نجاة للمسلمين إلا بالعودة للخطاب الإلهي: القرآن الكريم.

فعلى من أسلم أن يتخذ القرآن مرجعيته الوحيدة للإسلام، وعلى المسلمين أن يتدبروا ما فيه من عبادات ومعاملات وأخلاقيات وقيم عظيمة وعبر، وأن يكون طوق النجاة الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، فمن أراد الله به خيرًا يشرح صدره للقرآن.

ومن أراد غير ذلك فسوف يتبع الشيطان، ويكون عرضةً لعدم الاستقرار النفسي والالتباس الفكري حينما يتبع من اختزل الإسلام في فهمه، وعين من نفسه وصيًّا على المسلمين، وحل محل مرجعية القرآن.

والله تعالى يقول: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (النحل: ٨٩).

والله من وراء القصد، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب

علي محمد الشرفاء الحمادي